الرسالة المصرية

لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى

٤٧٠ — ٥٢٨

obeikandl.com

مقـــدمة

نزح كثيرون من رجال الأندلس إلى الشرق طلباً للعلم أو المال أو الجاه ، أو رغبةً فى أداء فريضة الحج ، وكان من أولئك النازحين إلى مصر رجلٌ جَمَع إلى الأدب الحكمة ، وإلى الطب التنجيمَ والموسيقى والرياضةَ والبراعة فى علم الحِيَل .

هذا الرجل هو أبو الصَّلت أُمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، المولود فى مدينة دانية ، من بلاد الأندلس سنة ٤٧٠ هـ .

قدِمَ أبو الصلت إلى الإسكندرية ومعه أُمُّه — فيما يروى ابن خَلِّكان — سنة ٤٨٩ ، أى فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر بالله علىّ بن الحاكم بأمر الله ؛ ووزيرُه إذ ذاك والقائمُ بأمر دولته الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمَنى .

وكان يأمُل أبو الصلت من وراء رحلته هذه بسطةً فى العيش ، وثَرَاءً من المال ، كما أشار إلى ذلك فى صدر رسالته . ويبدو أنه ظل دهراً خاملا يتحيَّن الفرص ، إلى أن أتيح له أن يتَّصل بأحد المقرَّبين إلى الوزير الأفضل[1] ، فى أيام الخليفة الآمر[2] ، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار[3] ، فخدمه بصناعَتَىِ الطبّ

---

(١) بدأت وزارة الأفضل للمستنصر الفاطمى سنة ٤٨٧ بعد وفاة أبيه بدر الجمالى ، ثم وزر للمستعلى بالله أحمد سنة ٤٨٨ ، ثم للآمر بأحكام الله سنة ٤٩٦ . وقد استبد بهؤلاء الخلفاء جميعاً إلى أن تمكن منه الآمر ودبر مقتله ، فقتل سنة ٥١٥ . النجوم الزاهرة (٥ : ٢٢٢) .

(٢) هو الآمر بأحكام الله منصور بن المستعلى بالله أحمد بن المستنصر بالله . ولد فى سنة ٤٩٠ واستخلف وله خمس سنين ، وقتل سنة ٥٢٤ . انظر النجوم الزاهرة (٥ : ١٧) والخطط المقريزية عند ذكر « الجامع الأقمر » .

(٣) معجم الأدباء (٧ : ٥٤) .

والتنجيم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتبُ الأفضل ينفَس عليه ذلك ، ويخشى بأس تاج المعالى ، وحدث أن تتابعت من تاج المعالى السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقى به فى سجن المعونة[١] بمصر ، مدة ثلاث سنين وشهر[٢] ، بعد الذى دبج فيه من المدائح والشعر[٣] .

ويروى ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء ، أن دخول أبى الصلت إلى مصر كان فى حدود سنة ٥١٠ هـ ، وأنه حبس فى الإسكندرية فى خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل[٤] . فإن صحت هذه الرواية كانت سنداً فى أن أبا الصلت ورد مرة أخرى بعد وفاة ولى نعمته أبى الطاهر يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس[٥] المتوفى سنة ٥٠٩ ، وهى سنة خروجه من مصر .

---

(١) ذكر المقريزى هذا السجن عند ذكر الدار المأمونية المنسوبة إلى المأمون البطائحى . قال : « وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة » . ثم قال : « ولم يزل هذا الموضع سجناً مدة الدولة الفاطمية ، ومدة دولة بنى أيوب ، إلى أن عمره الملك منصور قلاوون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ٦٨٠ » . وقال : « وكان حبس المعونة هذا يحبس فيه أرباب الجرائم ... وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود » . والدار المأمونية هى المعروفة بالمدرسة السيوفية .

(٢) وقد روى المقرى فى نفح الطيب (١ : ٥٣٠ ليدن) رواية عجيبة : أن عمر أبى الصلت ٦٠ سنة ، منها ٢٠ فى أشبيلية ، و ٢٠ فى أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين ، و ٢٠ فى مصر محبوساً فى خزانة الكتب .

(٣) انظر بعضها عند ابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٣ ، ٥٦) .

(٤) ذكر ابن أبى أصيبعة سبب حبسه فى الإسكندرية : أن الأفضل طلب إليه أن يعمل الحيلة فى رفع مركب غارق فى البحر ، فاجتهد أبو الصلت ، ولكنه حينما قارب النجاح خانه جده ، فهبط المركب إلى قعر البحر ، بعد ما كبد الدولة خسائر فادحة ، فحبسه الأفضل لذلك .

(٥) ملك أبو الطاهر يحيى بن تميم ، المغرب سنة ٥٠١ واستقر فى ملكه إلى أن توفى سنة ٥٠٩ . انظر تاريخ طرابلس الغرب لابن غلبون (ص ٣٩ — ٤٠) .

ضاق أبو الصلت ذرعا بمصر ، وما لقى فيها من الخيبة والعنت . قال القفطى[1] :

« ودخل مصر فى أيام أفضلها فلم ينل منه إفضالا ، وقصده للنَّيل فلم يجد لديه نوالا » . فحينئذ شد رحاله إلى المغرب فى سنة ٥٠٦ ، واستعاد صلته بحضرة أبى الطاهر يحيى بن تميم بن باديس ، الذى وضع له هـذه « الرسالة المصرية » يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه ، وتناول فى هذه الرسالة القيمة :

١ — الوصف البلدانى للديار المصرية ونيلها .

٢ — ثم أخذ فى تصوير جمال ربوعها ومغانيها تارة بالشعر وأخرى بالنثر .

٣ — وعقَّب على ذلك بالكلام فى سكانها وأجناسهم ومذاهبهم وأخلاقهم وعقائدهم ، منذ عهد الفراعنة إلى ظهور الإسلام .

٤ — وتحدث بعد ذلك فيما تحتويه من الآثار العجيبة ، كالهرمين والبرابى .

٥ — وذكر عواصم مصر فى القديم والحديث .

٦ — وقدامى العلماء من اليونان والروم ، مستطرداً بذلك إلى نذرة من لقيه بمصر من المشتغلين بالعلم والحكمة والطب .

٧ — وعجب من جهل من لقى بها من الأطباء ، ونوه بفضل بعض الأطباء البارعين .

٨ — وتحدث فى ولوع المصريين بأحكام النجوم وكثرة استعمالهم لها ، وأورد فى ذلك نوادر وطرائف .

٩ — ثم عرّج على ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء .

فهذه الرسالة تضرب بأسباب إلى علوم وفنون شـتى ، وتعدّ اليوم كما عدت

---

(١) انظر إخبار العلماء للقفطى (ص ٥٧) طبع السعادة .

بالأمس ، وثيقة يرجع إليها البلدانى ، والمؤرخ ، وباحث الآثار ، والاجتماعى ، والحكيم ، والطبيب ، والمنجم ، والأديب .

* * *

هذه الرسالة الصغيرةُ الحجم العظيمة القدر كانت متعارَفة متداوَلةً بين كبار العلماء والمؤرِّخين ، ثم أضحت نادرةً مجهولة ، إلى أن تمكَّن المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا — طيب الله ثراه — من اقتنائها فى مكتبته الخاصة ، وهى برقم ٦٠١ أدب . وعلى هذه النسخة الوحيدة فى العالم — كما يتَّضح من مراجعة فهارس بروكلمان[1] — أعتمِدُ فى نشر هذه الرسالة الفريدة ، التى أورد طرفاً منها ياقوت فى « إرشاد الأريب » ، والعماد فى « الخريدة » ، والقفطى فى « إخبار العلماء » ، وابن أبى أُصيبعة فى « عيون الأنباء » والأسعد بن مماتى فى « قوانين الدولة » ، والمقَّرى فى « نَفح الطيب » ، والمقريزى فى « الخطط » ، والأدفوى فى « الطالع السعيد » ، والسُّيوطى فى « حسن المحاضرة » ، كما سيتضح لك عند تحقيق نصوصها .

ولأبى الصلت غير الرسالة المصرية « كتاب الحديقة » على أسلوب « يتيمة الدهر » للثعالبى ، وقد نقل منه العماد فى « الخريدة » . وله أيضاً « الأدوية المفردة » وهو محفوظ فى مكتبة بودليان ، و « رسالة فى العمل بالأسطرلاب » فى برلين وليدن و بودليان ، و « تقويم الذهن » فى المنطق ، بمكتبة الإسكريال ، و « أوراق من كتاب فى الفلك » بالإسكريال ، و « كتاب فى المعانى المختلفة للفظة نقطة » فى مكتبة ليدن ، « قصيدة » بمكتبة برلين .

---

(١) انظر بروكلمان (١ : ٤٨٦ — ٤٨٧) وملحقه الأول (ص ٨٨٩) . على أننى عثرت فيما بعد على قطعة من الرسالة المصرية فى دار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ ، سأنبه على موضع بدئها ونهايتها فى الحواشى .

وقد صنف معظم هذه الكتب وهو فى اعتقال الأفضل بمصر ، كما نص ابن خلكان .

* * *

انتهت أيام أبى الصلت فى المهدية ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٠ وقيل سنة ٥٢٨[١] .

وإليك الرسالة :

(١) انظر ترجمته عند ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلكان (١ : ٨٠) والقفطى (٥٧) والمقرى (١ : ٥٢٠) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو الصلت أُمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت رحمه الله تعالى :

كنت إبانَ عصرُ الشباب مونقٌ ، وغصن الصِّبا مورق .

إذْ لِمَّتِي مسودةٌ ولماءِ وجهي رونق[1]

ممن سامحه الدهرُ بغَفْلة من غفلاته ، وتجافَى له عن غفْوةٍ من غفَواته ، فعاش آمِنَ السِّرْب ، سائغَ الشَّرب ، لا يتفرَّغ من أدب يرود رياضه ، ويرِدُ حِياضَه ، إلا إلى طرب يعمُر مَيدانَه ، ويسحب ذيولَه وأردانه . ثم تلوَّن فقلب لى ظهر مِجَنِّه ، وسقانى دُرْدِيَّ دنِّه ، فتدارك ما أغفلَه ، واستردَّ ما بذلَه ، واضطُرِرْتُ إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقا من مفارقة أولِ أرضٍ مسَّ جلدى ترابُها ، وشُدَّتْ علىَّ التمائم بها[2] . وجاءت أمورٌ لا تطاقُ كِبار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبقَ إلا الفِرار ، قلت : ليس لى إلا أن أرمىَ بنفسى كلَّ مرمًى ، وأطرحَها كلَّ مَطْرَح .

لأُبلِغ عُذراً أو أُنالَ رغيبةً ومُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجِحِ[3]

وسكنت إلى البيت المشهور :

---

(١) اقتبسه من قول أبى الطيب المتنبي وتصرف فيه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولماء وجهى رونق

(٢) اقتباس من قول رفاع بن قيس الأسدى :

بلاد بها نيطت علىّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

اللسان (نوط) وأمالى القالى (١ : ٨٣) .

(٣) اقتبسه كذلك من قول عروة بن الورد ، ورواه أبو تمام فى الحماسة (١ : ١٨٨) :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

تلقَى بكلِّ بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان[١]

وإن كان يقول العامَّة ليس بين بلد و بلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرِى البلادَ لأتيمَّ أوفقَها للمُقام ، وأعونَها على مقارَعة الأيام ، فكانت مصرُ مما وقع عليه اختيارى ، وصدَّقتْ حسنَ ظنى قبل اختبارى ، وسرتُ قاصداً إليها أعتسِف المجاهل والتنائف ، وأخوضُ المهالك والمتالف ، فطوراً أمتطى كلَّ حالكة الإهاب[٢] ، مسودَّة الجلباب ، ثابتةٍ كصِبغة الشباب ، قد فُسِح ميدانُها ، ووُضع براحة الرِّيح عنانُها ، فجرت جرىَ الطَّرف الجموح ، وفاتت مدى الطَّرف الطموح ؛ وطوراً كلَّ نقِبِ الأياطل ، كالهياطل[٣] ، سَبْط المشافر جعد الأشعار ، احتذى العقيقَ ، أو الصِّنو الشقيق ، إن علا قلتَ ظليمٌ خاضب ، وإنْ هوَى قلت شهابٌ ثاقب ، يصل الذَّميل بالوِخاد[٤] ، ويلتهم التهائم والنِّجاد . فكم جِزْعٍ وادٍ جزَعتُه ، وجلبابِ ليل ادَّرعته ، وكم برٍّ خرقت مَخارمه وفجاجَه ، وبحرٍ شققت غواربَه وأمواجه ، وليس لى غيرَ مصر مقصدٌ ، ولا وراءها مذهَب ، ولا دونها للغنى متطلَّب .

وكم فى الأرض من بلدٍ ولكن عليك لشقوتى وَقَع اختيارى

فلما تغمَّرتْ ركابى من النيل ، واستَذْرَت بظلِّ المقطم ، ألقيتُ عصا التَّسيار ، واستقرَّت بىَ النَّوى ، وخفَّت ظهورهن من الرِّحال ، وأرحتُهنَّ من الحِلِّ والتَّرحال ، وقلت : ضالَّتى المنشودة ، وبُغيتى المقصودة ، ها هنا ألبثُ وأقيم ، فلا

---

(١) البيت من أبيات الحماسة (١ : ٩٨) . وقبله :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان

(٢) يعنى السفينة .

(٣) إنما نقبت أياطله من إدمان السير . والنقب ، هنا : تنفط الجلد . والهياطل : جمع هيطل ، وهو الذئب ، يشبه به الفرس فى شدة العدو . وفى الأصل : « نقب الأياطيل كهياطيل » .

(٤) المسموع فى مصدر وخد هو الوخد والوخدان ،

أبرح ولا أرِيم ، « بلدةٌ طيِّبة وربٌّ غفور » . وحيث التفتّ فروْضةٌ وغدير ، وخورنقٌ وسدير ، وظِلٌ ظليل ، ونسيم عليل .

وكم تمنّيت أن ألقى بها أحداً ... يُسلِي من الهم أو يُعدِي على النُّوَب[١]
فما وجدتُ سوى قوم إذا صدَقوا ... كانت مواعيدهم كالآل في الكذب[٢]
وكان لي سببٌ قد كنت أحسَبني ... أحظَى به فإذا دانَى من السَّبب
فما مقلِّمُ أظفاري سوى قلمي ... ولا كتائبُ أعدائي سوى كتبي[٣]

ولم تطُلْ مدة اللُّبث حتى تبيّنْتُ بما شاهدتُه أني فيها مبخوسُ البضاعة ، موكوس الصناعة ، مخصوصٌ بالإهانة والإضاعة ؛ وأنّ عيشَها الرغدَ ، مقصورٌ على الوغد ، وعقابَها المرّ ، موقوف على الحُرّ ، فلو تقدّمت فعلمت ذلك لخفّ عنها مركَبي[٤] وصرفت إلى سواها وجهَ مطلبي ، ولكان لي في الأرض مرمًى شاسع ، ومُنتابٌ واسع ، بل تثبَّطت ، حتى تورّطت ، حتى عومِلت بما يُعامَل به ذوو الجرائر والذنوب ، وجَرَعت من المذلة بأوفى ذَنوب . هذا مع ما حبّرته من المِدَح التي اشتهرت شهرةَ الصَّباح ، وهبّت هبوبَ الرياح ، ولهِج بها الحادى والملاّح[٥] .

فسار بها من لا يسير مشمِّراً ... وغنَّى بها من لا يغنِّي مغرداً

إلاّ أنّ الله جلت آلاؤه ، وقُدّست أسماؤه ، تدارك برحمته فأزال تلك المحنة بالمِنْحة ، ونسخ تلك النقمة بالنعمة ، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجلِّ أبي الطاهر يحيي بن تميم بن المعز بن باديس ، الذي لم تزل حضرته مَصَاد

(١) في الأصل : « من النوب » صوابه في ياقوت (٧ : ٨٠) والقفطي (٥٧) وابن أبي أصيبعة (٢ : ٦٠) . وقد اقتبس هذه الأبيات من شعر له قديم ، كما يفهم من رواية ابن أبي أصيبعة .

(٢) في الأصل : « كالألف » ، صوابه في ياقوت والقفطي وابن أبي أصيبعة .

(٣) في الأصل : « كتائب أعواني » ، والصواب من المراجع المتقدمة .

(٤) في الأصل : « نخف » .

(٥) انظر مديحه للأفضل في ابن أبي أصيبعة (٢ : ٥٦) .

obeikandl.com

العُناة[١] ، ومَراد العُفاة ، ومجتمَع الفضائل ، ومنتجَع الأفاضل ، ومشرعَ الجود ، ومشعَر الوفود . فلما استترت بجناحه ، واستظهرت باستماحه ، أعذب لى بسماحة الدهر جناه ، واعتذر لى عما جناه ، فكفّ دونى كفّه ، وصرف عنى صَرفه .

كريم رفضت الناس لما بلغته كأنهم ماخفّ من زاد قادم

فكنت فيما مضيت عليه ، وآلت حالى إليه ، من إشراقها بعد الأفول ، وإيراقها بعد الذبول ، كنصل أهمَلَ أمرَه ، من جهل قدره ، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحتَه وحدَّه ، وحلّى حمائله وغِمدَه ، ثم ادّخره فيما يدّخر وأعدّه ، فإن انتضاه ، يوماً ارتضاه ، وإن جرّده ، أحمَدَه ، وإن هزّه ، سرّه فى الضريبة حزّه .

ولكن أبى الله أن يكون الفضل إلا لمن نشأ فى مغارسه ، ونجم فى منابته ، ورَبِىَ فى حجره ، وغُذِى بدَرّه.

فلم أستسِغْ إلاّ نَداه فلم يكن ليعدِلَ عندى ذا الجنابَ جنابُ
فما كلُّ إنعام يخفُّ احتمالُه وإن هَطلت منه علىّ رباب[٢]
ولكن أجلُّ الصنع ما جلّ ربُّه ولم يأتِ بابُ دونه وحِجاب
وما شئت إلا أن أدُلَّ عواذلى على أنّ رأيى فى هواكَ صواب[٣]
وأعلِمَ قوماً خالفونى فشرّقوا وغرّبتُ أنى قد ظفرت وخابوا

والأولى أن أضربَ عمّا سلف ، وأتركَ مافرَط ، وآخذَ فيما أجريت إليه وقصدتُه ، ونحوتُه واعتمدته ، ممّا آثرت به الحضرة الساميَة[٤] — أدام الله

---

(١) المصاد : موضع الصيد . والعناة : جمع عان ، وهو الأسير .

(٢) الرباب : سحاب يركب بعضه بعضاً ، الواحدة ربابة . وفى الأصل : « لدى ولامنه على » صوابه من ياقوت (٧ : ٥٩) ، وقافيته فيه « سحاب » .

(٣) البيت وتاليه للمتنبى فى ديوانه (١ : ١٢٧) برواية الكبرى .

(٤) فى الأصل : « الشامية » .

سموّها — من وصف ما عاينتُه من أرض مصر وعاينته ، والاقتصارِ على الذى رأيته دون ماروِيته ، فليس من يقول : علمتُ هــذا من طريق العلم والسماع ، كمن يقول : تحققتُه بالمشاهدة والاطلاع ؛ فإنَّ ذا اللب الأمينَ لا ينخدع بمحال ، ولا يرضى بالتخال .

* * *

وأنا أبتدئُ بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل منها ، وغَنائه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم ، وسيَرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينْجرُّ معه ، ويجىء بسببه ، ويدخــل فى تضاعيفه . وهأنذا آخذ فى ذلك ، وبالله أستعين ، وعليه التوكل .

* * *

(١)أرض مصر بأسرها واقعةٌ من المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ، ومعظمهما فى الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها فى الطول(٢) من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومى ، إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين . ومسافة ذلك قريبٌ من أربعين يوما .

قالوا : وحدُّها فى العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة ، إلى رشيد(٣) وما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومى ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان [أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر فى الضــفة الغربية منه . والنيل منْسرب فيما بينهما . وهما(٤)] أجردان غير شامخين ، يتقاربان

(١) الـكلام من هنا إلى كلمة « الاستقامة » نقله المقريزى فى (١ : ١٥ — ١٦) .
(٢) هذا تسجيل تاريخى بلدانى لما كانت عليه حدود مصر فى عهده .
(٣) فى الأصل : « لأرض الشام ورشيد » صوابه من الخطط .
(٤) التكملة من الخطط .

obeikandl.com

جدًّا فى وضعيهما ، من لدنْ مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، ثمّ تتسع مسافةُ مابينهما وتنفرج قليلا ، ويأخذ المقطم منهما مشرقاً والآخر مغربا على وِراب فى أخذيهما[١] وتفريج[٢] فى مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء[٣] وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، وهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة [مابين] أوغلها فى الجنوب و [أوغلها[٤]] فى الغرب والشمال . وإذا ماسُمحت بالطريق البرهانية فى طريق هذه المسافة [من الأميال] لم تبلغ ثلاثين ميلا[٥] ، بل تنقص عنها نقصاً ماله قدر ، وذلك لأن فضل مابين عرض أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء من الأجزاء التى بها تحيط الدائرة العظمى ، [وهى[٦]] ثلثمائة وستون جزءا . وليس بين طوليهما فضلٌ يقع بسببه فى هذا الحساب ماله قدرٌ يعتدّ به . فإذا ضاعفنا هذا العدد بمايخصُّ الدرجةَ الواحدة من محاذاة ذلك من الأميال ، وذلك ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل على مادل عليه البرهان ، كان ذلك[٧] نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب ، وذلك مسافة سير عشرين يومًا أو قريب من ذلك[٨] . وفى هذه المدة من الزمان يقطع السُّفَّار أبداً ما بين هذين البلدين بالسير المعتدل فى أكثرَ من ذلك قليلا ، لما فى الطريق من التعريج وعدم الاستقامة[٩] .

---

(١) فى الخطط : « مأخذيهما » .
(٢) فى الأصل : « وتعريج » صوابه فى الخطط .
(٣) فى الأصل : « الهرمان » وتصحيحه من الخطط .
(٤) هذه التكملة والتى قبلها من الخطط .
(٥) فى الأصل : « يوماً » ووجهه ما أثبت من الخطط .
(٦) ليست فى الأصل .
(٧) فى الأصل : « من ذلك » .
(٨) نقل عنه فى النجوم الزاهرة (١ : ٣٦) أنها ثلاثون يوماً .
(٩) إلى هنا ينتهى نقل المقريزى .

وليس تشتمل أرضُ مصر بعد الفسطاط الذى هو مقرُّ الملك وكرسيُّ الدولة، على مدائنَ لها قدرٌ فى كثرتها ولا فخامتها، لكن أجلُّ مدائنها وأفخرها أما فى الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط، وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط. فهذه صفة أرض مصر على الجملة.

* * *

(١) وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء، من جبل هناك يعرف بجبل القمَر، فإنه يبتدئ بالتزيُّد فى شهر أبيب(٢)، الذى هو بالرومية يولية(٣). والمصريون يقولون: «إذا دخل أبيب، كان للماء دبيب». وعند ابتدائه فى التزيد(٤) تتغير جميعُ كيفياته وتفسُد، والسّبب الموجب لذلك مُرورُه بنقائع مياهٍ آجنة(٥) يخالطها فيجتلبها، ويستخرجها معه ويستصحبها، إلى غير ذلك مما يحتمل(٦). فتصير مثل الحال التى وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله:

أما ترى الرعدَ بكى فاشتكى ... والبرقَ قد أومض فاستضحكا(٧)

فاشربْ على غيمٍ كصِبْغ الدُّجى ... أضحَكَ وجهَ الأرضِ لمّا بكى(٨)

[وقد حكى العودُ أنينَ الهوى ... لكنّه جوَّدَ فيما حكى](٩)

---

(١) من هنا يبتدئ نقل آخر المقريزى فى (١ : ٥٩).

(٢) فى الخطط: «فى التزايد». والتزيد والتزايد بمعنى.

(٣) ما بعد «أبيب» ليس فى الخطط. وفى الأصل: «قوليه».

(٤) فى الخطط: «التزايد».

(٥) فى الأصل: «بنقاء مع مياه آجنة»، والصواب فى الخطط.

(٦) الكلام والشعر بعد هذا لم يورده المقريزى.

(٧) فى الأصل: «الجو من إظلامه قد اشتكى»، ولا يستقيم به الوزن، إذ هو من السريع. وأثبت ما فى ديوان تميم الورقة (١٢٠) من مصورة دار الكتب ذات الرقم (١٦٠٢٥ ز)، وهذه الرواية هى التى ذكرها الثعالبى فى يتيمة الدهر (١ : ٣٤٩) الطبعة الأولى.

(٨) فى الأصل: «يشبه التحقيق كصبح» تحريف، وأثبت ما فى الديوان ويتيمة الدهر.

(٩) إثبات هذا البيت من ديوان تميم.

وانظرْ لماء النيـــل فى مدِّه كأنما صُـــندِلَ أو مسِّــكا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدةٍ يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل منها إذا الصَّــبا أرتنا به فى مرِّها عسكراً مَجْرا[(١)]

فشَـــطٌّ يهزُّ السمهريَّةَ ذُبَّلاً وموجٌ يهزُّ البيضَ هِنديَّةً تِبرا

إذا مَدَّحا كىَ الورد غَضًّا وإن صفا حكى ماءه لونا ولم يَعْدُه نشرا[(٢)]

وهذا نظير ما أنشدنيه عبد الله بن سريّة لنفسه :

راقنى النهرُ صـــفاء بعـــد شوقى لصفائه

كانَ مثل الورد غَضًّا ثم قد صـــار كمائه

ولأبى بكر الصَّنَوبرىّ[(٣)] فى مثل هذا المعنى :

ولقـــد طربتُ إلى الفرا تِ بكلِّ ذى كَرمٍ ومجدِ

والشمسُ عنـــد غروبها صـــفراء مذهبةُ الفِرندِ

والمـــاء حاشيتاه خضـــراوانِ من آسٍ ورَند[(٤)]

تحبـــوه أيدى الريح إن هبّت على قربٍ وبُعـــدِ

بطرائفٍ من فضـــــة وطرائفٍ من لازَوَرد

والســـفن كالطير انبرت فى الجوّ من مَثْنَى وفرد

حـــتّى إذا جزَرَ الفرا تُ مضى وأعقبـــه بمدّ[(٥)]

---

(١) يقال للجيش العظيم : مجر ، لثقله وضخمه .

(٢) حكى ماءه ، أى أشبه ماء الورد فى لونه . وفى الأصل : «حكى ماؤه نا فلم» تحريف.

(٣) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المرار ، المعروف بالصنوبرى الحلبى . قال السمعانى فى الورقة (٣٥٥) : نسبة إلى الصنوبر . وانظر تعليلا آخر فى مختصر تاريخ دمشق (١ : ٤٥٦) . ووفاته سنة ٣٣٤ هـ . كما فى شذرات الذهب . وانظر فوات الوفيات (١ : ٧٧) .

(٤) الرند: شجر من أشجار البادية طيب الرائحة ، ويقال للآس « رند » . وفى الأصل « وورد » ولا وجه له .

(٥) فى الأصل : « بورد » ووجهه ما أثبت .

obeikandi.com

أبصــــــرتَه وكأنه ملقىً عليـــــه رداء وردِ
متملمــــلًا كالصبّ أو ذِنَ من أحبّته بصَـــــدّ
وكأنّما بِحَشــــــاه ما بحشاىَ من قلقٍ ووَجــــد

وقال تميم بن المعز ، وأحسن التشبيه[(١)] :

يوم لنَا بالنيـــــل مختصَرُ وبكلّ يومِ مسرةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تصعدُ كالخيول بنا فيه وجيشُ المـاء ينحدرُ
فكأنّما أمواجُه غُرف وكأنّمـا داراته سُرر

وقال محمد بن الحسن :

النهر مكسوٌّ من الأزهار برداً أنيقاً مثل ثوب . . .
. . . . يجرى بمسك أو بذوب نضار[(٢)]
وإذا استقام رأيت صفحة مُنْصُل وإذا استدارَ رأيت عَطف سِوار

وقال أبوالحسن محمد بن الوزير ، فى تدرُّج زيادة المـاء إصبعاً إصبعاً ، ومنفعةِ ذلك التدرُّج :

أرى أبداً كثيراً مِن قليل وبدراً فى الحقيقة مِن هِلال
فلا تعجبْ فكلُّ قليلِ ماء بمصرَ مسبِّب لخليج مالِ
زيادةُ إصبعٍ فى كلّ يوم زيادةُ أذرع فى حُسن حال

فإذا كان فى الخامسَ عشرَ ذراعاً وزاد من السادسَ عشر إصبعاً واحدة كُسِر الخليج[(٣)] .

ولكسره يوم معدود ، ومَقام مشهود ، ومُجتمَع غاصٌّ ، يحضُره العامّ والخاص . وإذا كُسِر فتحت التُّرع — وهى فوّهات الخُلجان — ففاض المـاء

(١) الأبيات التالية لم أجدها فى ديوان تميم .
(٢) فى الأصل : « يجرى لسك ذوب نضار » .
(٣) فى الأصل : « نفعت نفعاً عظيما » ، وأثبت ما عند المقريزى فى (١ : ٥٩) .

obeikandi.com

وساح ، وعم الغِيطانَ والبطاح[١] ، وانضمّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضِّياع والمنازل ، وهى على آكام وربًى لا ينتهى إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحراً غامراً لما بين جبليها المكتنفين لها . وتثبت على هذه الحالِ ربثما يبلغ الحدَّ المحدود ، فى مشيئة الرب المعبود . وأكثر ذلك يحوم حول ثمانيةَ عشرَ ذراعاً ، ثم يأخذ عائداً فى منصبه ، إلى مجرى النيل [ومسربه ، فينضب أولا عما كان[٢]] من الأرض مشرفًا عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً[٣] ، فيترك كلَّ قرارة كالدرهم ، ويغادر كلَّ تلعة كالبُرد المسهَّم . وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولاسيما متنزَّهاتها المشهورة ، وديارتها المطروقة ، كالجزيرة ، وبركة الحبَش[٤] وماجرى مجراهامن المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذووالأدب والطرب.

واتَّفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمانِ إلى بركة الحبَش ، فافترشْنا من زهرها أحسنَ بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زُجاجات الأقداح شموسٌ فى خِلَع البدور ، ونجومٌ[٥] بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهبُ الأصيل على لجين الماء ، ونشِبت نار الشفق بفَحمة الظلماء ، فقال فى ذلك بعضُنا[٦] :

---

(١) فى الخطط : « وغمر القيعان والبطاح » .

(٢) مكان هذه التكملة التى أثبتها من الخطط بياض فى الأصل .

(٣) بدل هذه الجملة فى الأصل « ... متحفظ ... نسطاميا » وإكماله وصوابه من الخطط.

(٤) كانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين النيل والجبل . وسميت بركة الحبش نسبة إلى قتادة بن قيس بن حبشى الصدفى ، ممن شهد فتح مصر ، وكانت له حدائق بجوار هذه البركة تعرف بالحبش فنسبت البركة إليها . وهذه البركة موقعها اليوم منطقة الأراضى الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين وجزء عظيم من الأراضى الزراعية التابعة لقرية البساتين . انظر الخطط (٢ : ١٥٢) والنجوم الزاهرة (٥ : ١٤) .

(٥) فى الأصل : « وجوم » .

(٦) يعنى نفسه . وجاء فى الخطط (٢ : ١٥٥) : « وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب: « وخرجت مرة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى عفا الله عنه » . وأنشد الأبيات التالية . وجاء فى (٢ : ١٦٠) : « بئر أبى سلامة وتعرف ببئر الغنم ، وهى من قبلى النوبية ، وموضعها أحسن موضع فى البركة ، وهى التى عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله » وأنشد الأبيات ، ورواها ياقوت فى ترجمة أمية منسوبة إليه .

لله يومى ببركة الحَبَشِ   والأفق بين الضياء والغَبَشِ
والنيلُ تحت الرياح مضطربٌ   كصارم فى يمينِ مرتعشِ
قد نسجتها يدُ الغمام لنا   فنحن من نَسجها على فُرُش
ونحن فى روضة مفوّفة   دُبّج بالنَّور عِطفُها ووُشى[١]
فعاطِنى الراحَ ، إنَّ تاركها   من سورة الهم غير منتعش
وسقِّنى بالكبارِ مترعةً   فهنَّ أروى لشدّة العطش[٢]
فأثقلُ الناس كلِّهم رجلٌ   دعاه داعى الصبا فلم يَطِش[٣]

وقال أيضاً :

علِّلْ فؤادَك باللذات والطَّربِ   وباكرِ الرَّاحَ بالنايات والنُّخَب
أما تَرى البِركة الغنَّاء لابسةً   وشْيًا من النَّور حاكته يد السُّحُب
وأصبحَتْ من جديد النَّبْت فى حُلَلٍ   قد أبرز القَطرُ منها كلَّ محتجِب
من سَوسنٍ شرِقٍ بالطَّلّ محجِرُه   وأقحوانٍ شهىِّ الظَّلْم والشنبِ
وانظر إلى الورد يحكى خدّ محتشمٍ   من نَرجس ظلَّ يُبدى لحظَ مرتقِب
والياسمينَ وقد أربَى على درر   والراح من دُرَر تطفو على ذهب
كم مرّة قد شفينا فيه غُلّتنا   بجاحمٍ من فم الإبريق ملتهِب[٤]
شمسٌ من الراح حيّانا بها قمرٌ   موفٍ على غصُن يهتزّ فى كُثُب
أرخى ذوائبَه ، وانهزَّ منعطفاً   كصَعدة الرمح ، فى مسودّة العَذَب
فاطربْ ودونكها فاشربْ فقد نغبت   على التصابى دواعى اللهو والطرب

ومما يتعلّق بوصف النيل من أبياتٍ له كتبها إلى الأفضل ليلة المِهرجان :

---

(١) فى الأصل : « ذبح بالقطر » ، صوابه من الخطط ومعجم الأدباء .
(٢) فى الأصل : « لعل أروى » . وفى معجم الأدباء : « فهن أشفى » .
(٣) فى الأصل : « يدعوه داعى الصبا » وأثبت ما فى الخطط ومعجم البلدان .
(٤) فى الأصل : « علتنا » بالمهملة .

obeikandi.com

أبدعتَ للناس منظراً عجبًا   لا زالتْ تُحيي السرورَ والطربا
ألّفتَ بين الضِّدَّينِ مقتدراً   فمن رأى الماءَ خالطَ اللهبا
كأنَّما النيل والشموعُ به   أفقُ سماءٍ تألّقت شهبا
قد كانَ من فضَّةٍ فصار سمًا   وتحسبُ النارَ فوقه ذهبا

وقد تعاور الشعراء . . . . . . شعاع على صبح . ومن مليح ما قيل فى ذلك قول بعض أهل العصر ، وهو أبو الحسن على بن أبى البشر الكاتب :

شربْنا معْ غروبِ الشمس شمساً   مشعشعةً إلى وقت الطلوع
وضوء الشمع فوق النيل باد   كأطراف الأسنة فى الدُّروع

وأنشد أبو منصور الثعالبى (فى يتيمة الدهر) لمنصور بن كيغلغ[١] :

قام الغلامُ يديرها فى كفه   فحسبتُ بدر التِّمِّ يحمل كوكبا
والبدر يجنح للأفول كأنه   قد سَلّ فوق الشطّ سيفاً مذهبا[٢]

وأنشد فيه[٣] للقاضى أبى القاسم على بن إبراهيم بن أبى الفهم التنوخى :

أحسِنْ بدجلةَ والدُّجى متصوّبُ   والبدر فى أفق السماء مغرِّبُ
فكأنها فيه بساطٌ أزرقٌ   وكأنه فيها طراز مذهبُ[٤]

وقال ابن وكيع التِّنِّيسى :

غدير يدرِّج أمواجَه   هبوبُ الشمال ومَرّ الصَّبا
إذا الشمسُ من فوقِه أشرقَتْ   توهّمته جَوشناً مُذهَبا

---

(١) فى الجزء الأول من يتيمة الدهر (ص ٦٥) . وقبل البيتين :

عاد الزمان بمن هويت فأعتبا   يا صاحبى فسقيانى واشربا
كم ليلة سامرت فيه بدرها   من فوق دجلة قبل أن يتغيبا

(٢) فى الأصل : « فوق اللحظ » وفى اليتيمة : « فوق الماء » . وانظر ما سيأتى فى شعر ابن التمار الواسطى .

(٣) أى فى هذا المعنى ، أو فى كتاب يتيمة الدهر . انظر اليتيمة (١ : ٦٥) .

(٤) فى الأصل : « وكأنه فيه طراز » والوجه ما أثبت من اليتيمة .

وقال بعض أهل العصر من قصيدة :

باطي نهر كان الر ... وهو اللجين به ذوبا[١]
إذا حمشته الصبا رأيته ... كأنه زرداً مذهبا

وقال أبو عُبادة البحتري يصف بِركة :

إذا علتها الصبا أبدت بها حُبُكا ... مثلَ الجواشن مصقولاً حواشيها[٢]
إذا النّجُوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبتَ سماء رُكِّبت فيها

وقد أحسن عبدُ الله بن المعتز في قوله :

وتبدَّى لهن بالنّجف المُق ... فِرِ ماءٌ صافى الجِمام غرىٌّ[٣]
فإذا قابلَتْه دُرَّةُ شمسٍ ... خلتَه كسِّرت عليه الحلىّ[٤]

وقال ابن التَّمّار الواسطى يصف ضوء القمر على دجلة :

قِفْ فانتصف من صُروف الدهرِ والنُّوَبِ ... واجمعْ بكأسك شملَ اللّهوِ والطَّربِ
أمَا ترَى الليلَ قد ولّتْ عساكرُه ... مهزومةً وجيوشَ اللّهوِ فى الطلبِ
والبدرُ فى الأفقِ الغربىِّ تحسبه ... قد مدَّ جسراً على الشَّطَّين من ذهبِ

وقال محمد بن عبد الله السَّلامى :

ونهرٍ تمرح الأمواجُ فيه ... مِراحَ الخيل فى رَهَج الغبار
إذا اصفرَّت عليه الشمس خِلْنا ... نميرَ الماء يُمزج بالعُقار

* * *

وأمّا سكّان أرضِ مصرَ فأخلاطٌ من الناس مختلفةُ الأصناف[٥] ؛ من قِبط وروم وعَرب وبربر وأكرادٍ ودَيلم وحُبشان وأرمن[٦] ، وغيرِ ذلك من

(١) كذا ورد البيتان على ما بهما من تحريف .

(٢) البيتان من قصيدة له يمدح فيها المتوكل ويصف بركته . الديوان ٣١٩ .

(٣) الغرى : البارد ، يقال غرى الغدير : برد ماؤه .

(٤) فى ديوان ابن المعتز ٦١ : « فإذا ضاحكته » .

(٥) فى الخطط (١ : ٤٨) : « مختلفو الأصناف » .

(٦) هذه الكلمة ليست فى الخطط .

obeikandl.com

الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب فى اختلافهم ، والموجب لاختلاطهم ، اختلاطُ المالكين لها ، والمتغلِّبين عليها ، من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابُهم فاقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم[1] ، والانتماء إلى مساقطهم ومواقعهم .

وحكى جماعةٌ من المؤرّخين أنهم كانوا فى الزمن السالف عُبَّادَ أصنام ، ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دينُ النَّصرانية وغَلب على أرض مصر فتنصَّروا ، وبقُوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضُهم وبقى بعضٌ على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة .

وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتّباع الشهوات ، والانهماكُ فى اللذات ، والاشتغال بالتُّرّهات ، والتصديقُ بالمحالات ، وضعفُ المرائر والعزَمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان فى ذلك واقتصَّه ، وأورده من الأمور الطبيعية وموجبه[2] ، وكفى به حَكَماً منصفاً ، وشاهداً عدلاً .

وحكى الوصيفىُّ فى كتابه الذى ألَّفه فى أخبار مصر أنَّ أهلَها فى الزمن السابق كانوا يعتقدون أنَّ هذا العالم ، الذى هو عالمُ الكون والفساد أقام برهةً من الدهر خالياً من نوع الإنسان ، عامراً بأنواع أُخَر غير الإنسان ، وأن تلك الأنواعَ مختلفةٌ على خِلق فاذَّة[3] ، وهيئات شاذَّة ، ثم حدث نوعُ الإنسان فنازَعَ تلك الأنواعَ فغلبها واستولى عليها ، وأفنى أكثرَها قتلاً ، وشرَّد ما بقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشرَّدة هى الغيلان والسعالى وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوُّراتهم الفاسدة ، وتوهُّماتهم النافرة . إلا أنَّه يظهر من

---

(١) فى الخطط : « على الإشارة إلى مواضعهم » .

(٢) كذا وردت هذه الكلمة .

(٣) الفاذة : المنفردة . وفى الحديث : « هذه الآية الفاذة » ، أى المنفردة فى معناها .

أمرهم أنَّه كان فيهم طائفةٌ من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم[(١)] . ويدلُّ على ذلك ما خلفوه من الأشغال[(٢)] البديعة المعجزة ، كالأهرام والبَرابِىّ ، فإنها من الآثار التى حيَّرت الأذهان[(٣)] [الثاقبة ، واستعجزت الأفكار الراجحة] ، وتركت لها شغلاً بالتعجُّب منها ، والتفكُّر فيها . وفى مثلها يقول أبو العلاء أحمد بن سليمان المعرى فى قصيدته التى يرثى بها أباه[(٤)] :

تضلُّ العقولُ الْهِبْرِزِيَّاتُ رشدها ... ولا يسلمُ الرأى القويم من الْأَفْنِ
وقد كان أربابُ الفصاحة كلَّما ... رأوا حَسَناً عدُّوه من صَنعة الجنّ

وأىُّ شىء أعجبُ وأغرب بعد مقدورات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم [جَسيم[(٥)]] من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع ونحو سبعةَ عشر ذراعاً[(٦)] يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كلِّ ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا[(٧)] وهو مع هذا العظم[(٨)] ، من إحكام الصَّنعة وإتقانها[(٩)] ، فى غايةٍ من حسن التقدير بحيث لم يتأثَّر[(١٠)] إلى هلمّ جرّا[(١١)] بعصف الرياح وهَطْل السحاب ،

(١) فى الخطط (١ : ١١٨) : « وخصوصاً علم الهندسة والنجوم » .

(٢) فى الخطط : « من الصنائع » .

(٣) فى الأصل : « الآثار البعيدة من الأذهان » صوابه من الخطط .

(٤) فى سقط الزند (١ : ١٩٦) بشرح التنوير .

(٥) هذه من الخطط .

(٦) فى الخطط : « تسعة عشر ذراعا » . والذراع يذكر ويؤنث .

(٧) فى النجوم الزاهرة (١ : ٩٨) نقلا عن أبى الصلت : « وسبعون ذراعاً » .

(٨) فى الأصل : « مع هذا الطول منه » وكتب إزاءه : « فى العظم » بدلا من « الطول منه » وأثبت ما فى الخطط .

(٩) بدله فى الخطط : « وإتقان الهندام » .

(١٠) فى الأصل : « وهو لا يتأثر » ، وأثبت ما فى الخطط .

(١١) كذا ورد فى الأصل والخطط . ولعلها : « إلى اليوم وهلمَّ جرا » .

obeikandi.com

وزعزعة الزلازل . وهذه صفة كلٍّ واحد الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربي ، على ما شاهدناه منهما[١] .

وقال بعضهم وقد ذكر عجائب مصر : « وما على وجه الأرض بَنِيَّة إلا وأنا أرثي لها من الليل والنهار ، إلا الهرمين فإني أرثي لليل والنهار منهما » . وهذان الهرمان[٢] لهما إشرافٌ على أرض مصر و إطلالٌ [على] بطائحها ، وإصعادٌ على ذُراها . وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبي بقوله :

أين الذى الهرمانِ من بُنيانه ما قومُه ، ما يومُه ، ما المصرع[٣]
كنا نظنُّ ديارَه مملوءةً ذهباً فمات وكلُّ دار بلقعُ[٤]
تتخلَّف الآثارُ عن أربابها حيناً ويُدركها الخرابُ فتتبع[٥]

واتّفق أن خرجنا يوماً إليهما ، فلما أطفنا بهما واستدرنا حولهما كثُر تعجبنا منهما ، فتعاطينا القولَ فيهما ، فقال بعضنا[٦] :

بعيشك هل أبصرتَ أعجبَ منظرا على طُول ما أبصرتَ من هرمَيْ مصر[٧]
[أنافا عِنانا للسماء وأشرفا على الجوِّ إشرافَ السِّماكِ أو النَّسر[٨]

---

(١) فى الأصل : « منها » ، والصواب فى الخطط .

(٢) فى الأصل : « أرثى لليل والنهار منها على وهذان الهرمان من أعظمها » وأثبت الصواب من الخطط .

(٣) من قصيدة له فى ديوانه (١ : ٤٠٥) بشرح العكبرى ، يرثى بها أبا شجاع فاتكا .

(٤) هذا البيت لم يورده المقريزى ، وهو هنا فى غير وضعه الطبيعى . وموضعه فى الديوان بعد بيت يتلو الثالث هنا ؛ لأن ضمير « ديارَه » عائد إلى أبى شجاع فى البيت المشار إليه ، وهو :

لم يرض قلب أبى شجاع مبلغ قبل الممات ولم يسعه موضع

(٥) فى الخطط : « عن سكانها » . وفى الديوان : « عن أصحابها » .

(٦) فى بدائع البدائه ١٣٦ أن الذى قال الشعر هو أبو الصلت نفسه .

(٧) بعد هذا فى الأصل بياض بقدر صفحتين ، وقد وفقت لسد هذا الفراغ بما نقله المقريزى فى الخطط (١ : ١١٨ — ١١٩) ؛ ووضعت هذا البيت بين معقفى التكملة :] .

(٨) فى بدائع البدائه : « أنافا بأكناف السماء » .

وقد وافيَا نشزاً من الأرض عالياً كأنهما نَهْدانِ قاما على صدر[1]

وزعم قومٌ أن الأهرام قبورُ ملوكٍ عظام ، آثروا أن يتميَّزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ، كما تميّزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ، كما تميزوا عنهم فى حياتهم ، وتوخَّوا أن يبقى ذكرُهم بسببها على تطاول الدهور وتراخى العُصور .

ولما وصل الخليفة المأمونُ إلى مصرَ أمر بنقبها ، فنُقب أحدُ الهرمين المحاذيين للفسطاط بعد جُهد شديد ، وعناء طويل ، فوجدوا داخله مهاوِيَ ومزالقَ يهولُ أمرُها ، ويعسُر السلوك فيها ، ووجدوا فى أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحوٌ من ثمانية أذرع ، وفى وسطه حَوْض رَخام مطبَق ، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غيرَ رمّة بالية ، قد أتت عليها العصور الخالية ، فعند ذلك أمر المأمون بالكفِّ عن نقب ما سواه . ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة ، والمؤونةَ شديدة .

ومن الناس مَن زعم أن هرمس الأوّل ، المدعو بالمثلّث بالنبوة والملك والحكمة ، وهو الذى يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام — وهو إدريس عليه السلام — استدلَّ من أحوال الكواكب على كَون الطُّوفان يعمُّ الأرض ، فأكثرَ من بُنيان الأهرام ، وإيداعِها الأموالَ وصحائف العلوم ، وما يُشفِق عليه من الذَّهاب والدُّروس ، حفظاً لها ، واحتياطًا عليها . ويقال : إنّ الذى بناها ملك اسمه سوريد ابن سهلوق بن سرياق . وقال آخرون : إن الذى بنى الهرمين المحاذيين للفسطاط شدّاد بن عاد ، لرؤيا رآها . والقِبط تنكر دخولَ العمالقة بلد مصر ، وتحقّق أن

(١) بعده في بدئه البدائه : « وصنع أبو منصور ظافر الحداد :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعمارتين على رحيل بعجبين بينهما رقيب
وفيض البحر بينهما دموع وصيوت الريح بينهما نحيب
وظاهر سجن يوسف مثل صب تخلف فهو محزون كئيب »

بانيهما سوريد[١] ، لرؤيا رآها ، وهى أنّ آفة تنزل من السماء ، وهى الطوفان. وقالوا إنه بناهما فى مدة ستة أشهر ، وغشّاهما بالديباج الملون ، وكتب عليهما :

« قد بنيناهما فى ستة أشهر ، قل لمن يأتى من بعدنا يهدمهما فى ستمائة سنة ، فالهدم أيسر من البنيان ، وكسوناهما الديباج الملون فليكسُهُما حصراً ، فالحُصر أهون من الديباج » .

ورأينا سطوحَ كلٍّ واحدٍ من هذين الهرمين مخطوطةً من أعلاها إلى أسفلها بسطورٍ متضايقة متوازية ، مِن كتابةِ بانيها ، لا تُعرف اليومَ أحرفُها ، ولا تُفهَم معانيها . وبالجملة الأمر فيها عجيب ، حتى إنّ غاية الوصف لها والإغراق فى العبارة عن حقيقة الموصوف منها ، بخلاف ما قاله على[٢]] بن العباس الرومى ، وإن تباعد الموصوفان ، وتباين المقصودان ، إذ يقول :

إذا ما وصفتَ امرأ لا مرئٍ   فلا تغـــلُ فى وصفه واقصِدِ
فإنّك إن تغـــلُ تغلُ الظنو   نُ فيـــه إلى الغَرض الأبعدِ
فيصغر من حيث عـــظَّمته   لفضـــل المَغيب على المشهد

وكذلك أمر البرابى ، كبربا إخميم ، وبربا سمنود[٣] ، وبربا دندرا[٤] ، فإن فيها من الإحكام وجَودة الشكل وحسن التصوير ، ما يدلُّ على أن عُمّارها

(١) فى النجوم الزاهرة : « سوريد وقيل سويد » .

(٢) إلى هنا ينتهى السقط الذى نبهنا عليه فى الحاشية ٧ من صفحة ٢٦ .

(٣) فى الأصل : « سمندو » صوابه من المقريزى عنـد ذكر البرابى ، وقال ياقوت : « كورة السمنودية كان فيها بربا وكانت إحدى العجائب . قال القضاعى : ذكر عن أبى عمرو الكندى أنه قال : رأيته وقد خزن فيه بعض عمالها قرظاً ، فرأيت الجمل إذا دنا من بابه وأراد أن يدخله سقط كل دبيب فى القرظ ، ولم يدخل منه شىء إلى البربا . ثم خرب عنـد الخمسين وثلثمائة » .

(٤) فى الأصل : «ديدرا » وإنما هى « دندرا » أو « دندرة » أو « أندرا » كما فى معجم البلدان . وفى بربا دندرة يقول المقريزى : « وهو بربا عجيب ، فيه ثمانون ومائة كوة تدخل الشمس كل يوم من كوة منها ، ثم الثانية حتى تنتهى إلى آخرها ، ثم تكر راجعة ، إلى موضع بدئها» . وأنشد ياقوت فى مطلع أبيات :

إن قاض بدندرا   قال بيتين سطرا

obeikandi.com

ذوو عقول راجحة ، وأنّه قد كانت لهم بالحكمة عنايةٌ بالغة ، لا سيما بصناعتى الهندسة والنجوم .

وقال بعضُ أهلِ العناية بأخبار الأمم وتواريخهم : كان بمصرَ بعد الطُّوفان علماء بضروب الحكمة ، من العلوم الرياضيّة والطبيعية والإلهيّة ، ومتحقِّقون بعلم المَرَايا المحرِقة ، وبالطِّلسمات والنِّير نجيات وغير ذلك .

والمُلك بمصرَ من قديم الزمان بمدينة منف ، وهى فى غربى النيل ، على مسافة اثنى عشر ميلا من الفسطاط . ولما بنى الإسكندرُ مدينةَ (الإسكندرية) منذ نحو ألفِ سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ، رَغِبَ الناسُ فى عمارتها[1] ، وكانت دارَ العلم ، ومَقرَّ الحكمة ، إلى أن تغَلَّب عليها المسلمون فى خلافة عمرَ بنِ الخطاب ، رضوان الله عليه ، واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانسرب أهلُ مصرَ وغيرُهم من العرب والعجم إلى سكناها ، فصارت قاعدةَ ديارِ مصر ومركزَها إلى وقتنا هذا .

فيقال إنّ من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث[2] ، وكان فيلسوفاً جَوّالا فى البلاد ، طوافاً فى المدائن ، عالماً بنُصبتها[3] ، وطوالعها وطبائع أهلها ، وله تصانيف جليلة مفيدة فى فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس[4] صاحب المقالات الموضوعة فى علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة .

---

(١) فى الأصل : « وأعجب فى عمارتها » صوابه من المقريزى (١ : ١٣٥) .

(٢) فى الأصل : « هرمس الثانى » والصواب ما أثبت من عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (١ : ١٧) حيث ذكر الهرامسة الثلاثة ، وقال فى هرمس هذا : « وأما هرمس الثالث فإنه سكن مدينة مصر ، وكان بعد الطوفان » . وأما هرمس الثانى فهو كلدانى من أهل بابل . وهرمس الأول مصرى كان قبل الطوفان ، وهو عند العرب إدريس عليه السلام .

(٣) فى الأصل : « بنصبها » ، وفى عيون الأنباء : « عالماً بنصبة المدائن وطبائعها » .

(٤) ذكره ابن أبى أصيبعة فى (١ : ٢٤٥) فى أثناء ترجمة « قسطا بن لوقا » ، قال : « كتاب فى ترجمة ديوفنطس فى الجبر والمقابلة » . وذكره أيضاً عرضاً فى ترجمة ابن الهيثم (٢ : ٩٨) .

ومنهم الإسكندرانى[١] صنف كتاب الأفلاك ، وكتاب القانون فى تقويم الكواكب .

ومنهم روسم[٢] صاحب التصانيف فى الكيميا .

ومنهم أنقلاؤس الإسكندرى[٣] وأصحابه ، الذين اختصروا كتب جالينوس فى صناعة الطب ، وألّفوها على طريق المسألة والجواب ، يدلُّ حسن اختصارِهم لها على وفور علمهم ، وفَضل معرفتهم .

ومنهم واليس[٤] صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومى ، المصنّف فى فى المواليد وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم . ويقال إنه الذى استخرج بطول التحرّى[٥] ومواصلة العَناء ، جدودَ المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر فى ذلك الزمان . وأما زماننا هذا فقد دثر منها كلُّ علم وامّحى رسمُه ، وجُهل إسمه ، ولم يبق إلّا رَعاع وغُثاء وجَهَلة دهماء ، وعامّة عمياء ، وجُلُّهم أهلُ رعانة[٦] ولهم خبرةٌ بالكيد والمكر ، وفيهم

---

(١) لعله « أقطيمن الإسكندرانى » . قال القفطى فى أخبار الحكماء (٥٠) : « كان عالماً بالرياضة محققاً للأرصاد خبيراً بعمل آلاتها » . اجتمع هو وميطن على الرصد بمدينة الإسكندرية من الديار المصرية ، ورصدا وأثبتا ما تحققاه ، وتداوله العلماء بعدهم إلى زمن بطليموس القلوذى الراصد بالإسكندرية . وكان زمنهما قبل زمانه بخمسمائة وإحدى وسبعين سنة » .

(٢) ذكره القفطى فى ص ١٢٧ ، بلفظ « روشم » قال : « روشم المصرى ، هذا الرجل كان بمصر قبل الإسلام ، وهو قيم بعلوم الكيمياء وأصولها وتفصيلها وأحكام أمر تركيبها ... وله فى ذلك كتب جليلة مشهورة عند علماء هذا النوع يتنافسون فى تحصيلها والظفر بها » .

(٣) ترجم له القفطى فى (٥١ — ٥٢) وابن أبى أصيبعة فى (١ : ١٠٣ — ١٠٤)

(٤) ذكره القفطى فى (١٧٢) قال : « فاليس المصرى ، وربما قيل واليس الرومى ، كان حكيما فاضلا فى الزمن الأول بعلوم الرياضة وأحكام النجوم . وله فى ذلك المؤلفات الجليلة المشتملة من هذا النوع على المقاصد الجليلة . وهو مؤلف الكتاب المشهور بين أهل هذه الصناعة ، المسمى بالبريدج الرومى » .

(٥) فى الأصل : « التجربة » .

(٦) المعروف فى هذا المصدر : الرعن ، والرعونة .

بالفطرة قوّةٌ عليه وتلطّف فيه وهدايةٌ إليه ، لِمَا فى أخلاقهم من الملَق والسياسة[1] التى أربَوا فيها على كلِّ مَن تقدّم وتأخّر ، وخُصّوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ، حتّى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً ، والمثلُ بهم مضروبا .

وفى خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس[2] :

نَحَضتكمُ يا أهل مصرَ نصيحتى ... ألَا فخُذُوا من ناصحٍ بنصيب[3]

رَماكم أميرُ المؤمنين بحيّةٍ ... أكولٍ لحيّات البلاد شَروب

[ولا تثِبوا وثبَ السَّفاة فتركبوا ... على حدِّ] حامى الظهر غيرِ ركوب[4]

فإن يك باقى إفك فرعون فيكم ... فإن عصا موسى بكف خصيب

* * *

وأما حالُ المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذاكر منها ماوقفت عليه ، وكشفت بالمحنة عنه . كنت فى أول جلوسى بها شديدَ العناية بكتب جالينوس و بقراط ، باحثاً عن مُشكلها ، فاحصاً عن مستغلِقها ، فحرَصت كلَّ الحرص ، وجهَدت كلَّ الجهد على أن أجدَ من أهل هذه الصناعة مَن استفيد منه وأستزيد بمذاكرته ، وأقدح خاطرى بمفاوضته ، فلم أجدْ غيرَ قومٍ طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارَهم ، وطمس أفهامَهم ، وحال بين الحكمة و بينهم ، فكانوا و إيّاىَ ، كما قال الشاعر :

قومٌ إذا جالستَهُمْ ... صدئتْ بقربهم العقولْ

لا يُفهمونى قولَهم ... ويدقُّ عنهم ما أقول

فهمُ كثيرٌ بى كما ... أنِّى بجمعهم قليل

---

(١) فى الخطط (١ : ٤٩) : « الملق والبشاعة » .

(٢) الأبيات الأربعة فى ديوانه (١٠٣ — ١٠٤) يمدح بها الخصيب أمير مصر .

(٣) فى الديوان : « منحتكم يا أهل مصر » .

(٤) التكملة من الديوان (١٠٣) ، وموضعها بياض فى الأصل . حامى الظهر : هو البعير الذى حمى ظهره فيترك فلا ينتفع منه بشىء ولا يمنع من ماء ولا مرعى . وفى الأصل : « حانى الظهر » صوابه من الديوان . والبيت لم يرد الخطط .

وقد تخلّقوا بكثرة الخِلاف ، وقلة الإنصاف ، ولزموا البُهْتَ والمعاندة ، والشغَب والمكابرة ، وجهلَهم بصناعة الكتب وخلوهم من أدواتها ، وعدمَهم لعددها وآلاتها ، وإهمالَهم لشرائطها ، وإغفالَهم للوازمها ، وقصورَ أذهانهم عن إدراك دقائقها ، وبُعدَ عقولهم عن تصوُّر حقائقها ، ولم يعلموا أنَّ الطبيبَ محتاج إلى أشياء تعينُه فى صناعته وتفتح له مغالقَها ، وتوضّح مُشكلها ، وتشرح مشتبِهها ، وتبيِّن له مستعجِمَها ، وتذيقه بردَ اليقين[1] ، وتجلو عن عين بصيرته ظُلَمَ الشُّكوك والظُّنون ، وهى العلوم الطبيعية التى تعرِّفه مبادِئَها وأوائلها ، وتعطيه استُقُصّاتها وعناصرَها[2] ، والقوانينُ القياسية التى تسدِّد ذهنَه نحوَ الصواب فيما يلتمس علمَه ، ويتطلَّب فهمَه ، وتعرِّفه كيف يُحِيل[3] مطلوباتها إليها ، ويبنى قياساتِه عليها ، وكيف يتطرَّق من جليِّها إلى خفيِّها ، ويستدلّ بظاهرها على غائبها ، ويأمن الزَّلَل ، ووقوعَ الخطل والخلل ، ويحقِّق الأسبابَ والعلل .

ولا بدَّ لمن أراد أن يكون طبيبا كاملا ، وحكيما فاضلا ، من النظر فى العلوم الرياضية ، ولا سيما النجومية منها والموسيقاوِيّة . وأولى الناس بأن يكون على هذه الصِّفة أطباء الملِك التُّبَّعى الألمعىّ ، الذى إنما يستعمل الطبيب والمنجِّمَ على جهة الاستظهار ، لا على جهة الافتقار والاضطرار . وكيف ونظرُه الأعلى ، وقِدحُه المعلَّى ، وسهمُه الأسدُّ ، وباعه الأمَدّ . ومن كان مثلَه — ولا مثلَ له فى تطبيق المفاصل ، وإصابة الشوا كل — فخليقٌ به أن يَختار ، ولا يُختار ، ويستبدّ ، ولا يستمدّ .

---

(١) فى الأصل : « برد النفس » والوجه ما أثبت .

(٢) الأستقص ، ويقال الأسطقص ، هو الشىء البسيط الذى منه يتركب المركب ، كالحجارة والقراميد والجذوع التى يتركب منها القصر ، وكالحروف التى منها يتركب الكلام ، وكالواحد الذى يتركب منه العدد . والاسطقسات الأربعة هى النار والهواء والماء والأرض ، انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى (٨٢) .

(٣) فى الأصل : « يحلل » .

هيهاتَ أن يأتيَ الزمانُ بمثله   إنَّ الزمانَ بمثله لبخيلُ

فلمّا [لم] يأخذوا نفوسَهم بالإتقان لما قد سَلَفَ تحديدُه ، بل استطالوه ، واستبعدوا الأمدَ إليه ، ورأوا أنَّ غرضَهم من صناعة الطب الذى هو عندهم بحسب رأيهم ، التكسُّبُ بما يتمُّ لهم بأقربَ مما شرطه الأوائل متناولاً ، وأسهلَ مراما ، لم يحفظوا(١) غيرَ أسماءِ أدويةٍ قليلة العدد يصرِّفونها فى مداواة كلِّ مريض دونَ إعمالِ فكرِهم فى حقيقة نوعه وسببه ، ومقتضيه وموجِبه .

وقد ذمَّ جالينوسُ من فِرَقِ الطبِّ الثلاثِ الفرقةَ الحِيَليّة(٢) ، لحذفها جميعَ لوازم الصناعة الطبية ، واقتصارِها فى المداواة على النَّظر فى المرض ، هل من جنس الاستفراغ فيقابل بالإمساك ، أو من جنس الإمساك فيقابل بالاستفراغ ، دون الفحص عن أمر المزاج والسنّ والسجيّة ، والبلد والعادة والماهيّة . فما ظنك بجالينوسَ لو شاهدَ هؤلاءِ الذين لا يثبُتون على نِحلة ، ولا ينتسبون إلى فرقة ، فإن برئ على أيديهم عليلٌ فبُرؤُه على جهة الاتفاق ، وإن هلكَ فبالواجب والاستحقاق ، وهم كما قال الشاعر فى مثلهم :

وطبيبٍ مجرِّبٍ ما له بالـ   ـنُّجح فى كلِّ ما يجرب عادهْ
مرَّ يومًا على عليلٍ فقلنا   قرَّ عيناً فقد رُزِقتَ الشهاده

أو كما قال الآخر فى بعض حكمائنا المشهورين عند العوامّ بالحذق والتقدم :

قل للوَبا أنت وابنُ زُهرٍ   قد جزتما الحدَّ والنهايهْ
ترفّقا بالورَى قليلا   فى واحدٍ منكما كفايه

أو كما قال بعضُ أهل العصر أيضاً فيهم :

وطبيبٍ مُشعبذٍ   يمزُج الطبَّ بالرُّقَى

---

(١) فى الأصل : « فلم يحفظوا » .
(٢) فى الأصل : « الفرق الجبلية » .

obeikandl.com

ما رأيناه قط طبّاً عليلاً فوُفّقا
بل عَدِمَ الصحَّةَ فى الـجِسم والقلب والبقا
ذو صفاتٍ تُغادِرُ الـجسمَ مما به لَقِى
عادمًا للحَراك والحسِّ والخِفّة والنقا(١)
قد سقاه بها الحِمَا مَ ولم يَدرِ ما سَقى

وقال آخر :

ما خَطَرَ النبضُ على باله يومًا ولا يَعرف ما الماء(٢)
بل ظنَّ أن الطبَّ دُرّاعةٌ ولحيةٌ كالقطن بيضاء(٣)

* * *

ومن ظَريف ما سمعتُه أنَّه كان بمصرَ منذُ عهدٍ قريب رجلٌ ملازمٌ للمارَستان يُستدعَى للمرضى كما تستدعَى الأطبّاء ، فيدخلُ على المريض فيحكى له حكاياتٍ مضحكة ، وخُرافاتٍ مسلِّية ، ويُخرج له وجوهاً مضحكة ، وكان مع ذلك لطيفاً فى إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ؛ فإذا انشرح صدرُ المريض وعادت إليه قوَّتُه تركه وانصرف ، فإن احتاجَ إلى معاودة المريض عاده إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطبّاء عصرنا هذا بأسرِهم قدَروا على مثل هذا العلاج الذى لا مضَرّة فيه ولا غائلةَ له ، بل أمرُه على العليل هيِّن ، ونفعُه ظاهر بيِّن ؛ كيف لا وهو ينشّط النفس ويبسط الحرارةَ الغريزية ، ويقوِّى القوى الطبيعية ، ويقوِّى البدن على دفع الأخلاط الردِّية المؤذية والفضول ، مع الاستظهار بحفظ الأصول . وأكثر أطبائها المبرزين(٤) نصارى ويهود ، وفى ذلك يقول بعضهم :

(١) موضع هذه الكلمة بياض فى الأصل .
(٢) يعنى اختبار ماء المريض ، وهو بوله .
(٣) الدراعة ، كرمانة : جبة مشقوقة المقدم .
(٤) فى الأصل : « المزبرقين » .

obeikandi.com

أقول للمسلمين طـــــرًّا! تبغُون فى طبِّنا(١) اشتهارا
هيهـــاتَ حاولتمُ محالا كونوا إذاً هوداً أو نصارى

(٢) وأشبَهُ مَن رأيتُه منهم وأدخَلُه فى عِداد الأطباء ، رجلٌ من اليهود يدعى أبا الخير سلامةَ بن رَحمون ، فإنّه لقى أبا الوفاء(٣) المبشِّر بن فاتك(٤) ، فأخذ عنه شيئاً من صناعة المنطق تخصَّص به وتميَّزَ عن أضرابه ، وأدرك أبا كثير بن الزفان(٥) تلميذ أبى الحسن على بن رِضوان(٦) ، وقرأ عليه بعضَ كتبِ جالينوس ، ثم نصبَ نفسَه لتدريس جميعِ كتب المنطق ، وجميعِ كتب الفاسفة الطبيعية والإلهية ، وشرح بزعمه وفسَّر ولخص ، ولم يكن بذاك(٧) فى تحصيله وتحقيقه ، واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه ، بل كان يَكثُر(٨) كلامُه فيضلّ ، ويُسرع جوابُه فيَزِلّ . ولقد سألتُه فى أول لقائى واجتماعى به ، عن مسائلَ استفتحت مباحثته(٩) بها مما يمكن أن يفهمها مَن لم يمتدَّ بعد فى العلم باعُه ، ولم يكثر تبحُّره واتساعُه ، فأجاب عنها بما أبانَ عن تقصيره ونطق بعجزه ، وأعربَ عن سوء

---

(١) فى الأصل : « طبها » .

(٢) النص التالى نقله القفطى فى إخبار العلماء (١٤٢ — ١٤٣) ، وكذلك ابن أبى أصيبعة (٢ : ١٠٦) .

(٣) بعد هذه تبتدئ القطعة المحفوظة بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ من الرسالة المصرية وسأشير إليها فى التعليقات برمز «ق» .

(٤) ترجم له القفطى (١٧٦ — ١٧٧) وقال : « هــذا رجل أصله من دمشق وموطنه مصر ، وهو من الحكماء الأماثل فى علم الأوائل ... وكانت له ابنة عمرت بعده وروت بالإسكندرية به أحاديث نبوية . وكان فى آخر المائة الخامسة للهجرة » .

(٥) عند القفطى : « الكثير البرقانى » تحريف . وأبو كثير كنية له ، واسمه أفرائيم ابن الزفان ، قال ابن أبى أصيبعة فى (٢ : ١٠٥) : « إسرائيلى المذهب ، وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر » . وقد اشترى منه الأفضل بن أمير الجيوش عشرة آلاف مجلد من كتبه ، كان قد ساوم عليها بعض العراقيين .

(٦) انظر ترجمته عند ابن أبى أصيبعة (٢ : ٩٩) .

(٧) ق وابن أبى أصيبعة : « ولم يكن هناك » . وعند القفطى : « ولم يكن هنالك » .

(٨) فى الأصل : « تراه يكثر » ، وأثبت ما فى سائر المصادر .

(٩) فى الأصل : استقبحت مباحثه بها » ، صوابه فى سائر المصادر .

obeikandi.com

تصوّره وفهمه . وكانَ مثَله فى عِظَم دعاويه ، وقصورِه عن أيسر ما هو متعاطيه[١] كقول الشاعر :

يشمِّر لِلُّجِّ عن ســـاقه ويغمره الموجُ فى السَّاحلِ

أو كما قال آخر :

تمنيتمُ مائتَىْ فارس فردّ كمُ فارسٌ واحدُ[٢]

وكان[٣] بمصر طبيب من أهل أنطاكية يسمى « جرجس » ، ويلقب بالفيلسوف ، على نحو ما قيل فى الغراب : أبو البيضاء ، وفى اللديغ : سليم ، وقد تفرغ للتولُّع [بأبى الخير سلامة بن رحمون اليهودى الطبيب المصرى[٤]] والإزراء عليه ، وكان يزوِّر فصولا طبِّية وفلسفية يُبرزها فى مَعارض ألفاظ القوم ، وهى مُحالٌ لا معنى لها ، وفارغة لا فائدة فيها ، ثم يُنفِذها[٥] إلى مَن يسأله عن معانيها ، ويستوضحُه أغراضَها ، فيتكلّم عليها ويشرحها بزعمه دون تيقُّظ[٦] و[لا[٧]] تحفظ ، بل باسترسالٍ واستعجال ، وقلّةِ اكتراثٍ وسوء اهتبال ، فيُؤخذ منه[٨] ما يُضحِك منه ويشرح الصَّدر .

[وأُنشِدت[٩]] لجرجسَ هذا فيه ، وهو من أحسنِ ما سمعته فى هجو طبيب مشؤوم[١٠] ، وأنا متَّهم له فيه :

---

(١) فى الأصل : « نشر ما هو متعاطيه » صوابه فى سائر المصادر .
(٢) إلى هنا ينتهى نقل القفطى فى ١٤٢ — ١٤٣ . وانظر البيان (١ : ٢٤٩) .
(٣) النص التالى نقله القفطى فى ١٠٩ وابن أبى أصيبعة فى (٢ : ١٠٦ — ١٠٧) .
(٤) التكملة من القفطى . وبدلها عند ابن أبى أصيبعة : « بابن رحمون » .
(٥) ق فقط . « ثم ينفذ بها » .
(٦) ق فقط : « تيقن » .
(٧) هذه من القفطى وابن أبى أصيبعة .
(٧) القفطى وابن أبى أصيبعة : « فيوجد فيها عنه » .
(٩) هذه من ق والقفطى وابن أبى أصيبعة .
(١٠) كلمة « مشؤوم » وما بعدها ساقط من ق . وفى نسخة الأصل : « ومن أحسن ما قيل فى ذم الطبيب الجاهل » .

obeikandi.com

إنَّ أبا الخير على جهله   يخفُّ فى كِفّته الفاضلُ
عليلُه المسكينُ من شُومه   فى بَحرِ هُلْكٍ ما له ساحلُ
ثلاثةٌ تدخل فى دفعــة   طلعتُه والنعشُ والغاسلِ

ولبعضهم :

لأبى الخير فى العِــلا   ج يدٌ ما تقصِّرُ
كلُّ من يســتطبُّه   بعد يومين يُقــبَر
والذى غاب عنكمُ   وشــهدناهُ أكثر[(١)]

ومما قيل فيه :

جنونُ أبى الخير الجُنونُ بعينه   وكلُّ جنونٍ عندَه غايةُ العقلِ
خُذوه فغُلُّوهُ وشُــدُّوا وَثاقَه   فما عاقلٌ من يستهين بمختلِّ
وقد كان يؤذى الناسَ بالقول وحدَهُ   فقد صار يؤذى الناسَ بالقول والفعل

وأما المنجِّمون الآن بمصر فهم وأطباؤهم كما قُدَّ الشِّراك من الجلد ، بل كما حُذِيت النّعلُ بالنعل ، لا يتعلَّق أمثلُهم من علم النجوم بأ كثرَ من زايجة يرسُمها[(٢)] ومراكِزَ يقوِّمها . فإما الإمعان والتبحُّر فى معرفة الأسباب والعلل[(٣)] ، والمبادى

(١) فى نسخة الأصل : « وسمعنا بوصفه » . وأثبت ما فى ق وابن أبى أصيبعة . ولم يرو القفطى هذه الأبيات .

(٢) جاء فى « مفاتيح العلوم » للخوارزمى ١٢٧ : « الزايجة هى صورة مربعة أو مدورة تعمل لمواضع الكواكب فى الفلك لينظر فيها عند الحكم لمولد أو غيره . واشتقاقه بالفارسية من زائش ، أى المولد ، ثم أعربت الكلمة فاستعملت فى المولد وغيره » . وجاء فى معجم استينجاس (٦٠٨) : « زايجة astronomical tables » أى الجداول الفلكية . وفى نسخة الأصل : « زايرجة » وأثبت ما فى ق . والزايرجة ، هى — كما ذكر ابن خلدون فى المقدمة — فرع من فروع علم السيميا ، يمكن بها استخراج الأجوبة من الأسئلة بارتباط بين الكلمات . فمن الزايرجة المنظومة يستطاع معرفة الأجوبة بطرق خاصة ، وحساب معين يدخل فيه الجمع والطرح والضرب . وهناك كلمة أخرى مماثلة ، وهى الزيج ، وتجمع على أزياج . والزيج : صناعة حسابية بقوانين عددية يمكن بها معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية والمستقبلة ، وهو الدستور لما يسمى عند الفلكيين بالتقويم .

(٣) هذا ما فى ق . وفى نسخة الأصل : « ومعرفة الأسباب والعلل » .

obeikandi.com

الأوَل ، فليس منهم مَن يرقَى إلى هذه الدرجة ، ويسمُو إلى هذه المرتَبة ، ولا يحلِّق فى هذا الجوّ ، ويستضىء بهذا الضوء[١] إلا أبو الحسن على بن النضر[٢] المعروف بالأديب ، رضى الله عنه ، من أهل صعيدِ مصرَ الأعلى ، فإنه كان من الأفاضل [الأعيان[٣]] ، المعدودين من حسنات هذا الزَّمان[٤] . وسنذكره فيما نستأنفه إن شاء الله تعالى .

* * *

وأما الطائفة المقلِّدة التى حظُّها من المعارف القُشور دون اللبوب[٥] ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمْثَلُ مَن بها منهم الآنَ رجلٌ يعرف برزقِ الله النحاس[٦] ، فإنّ له فى فروع هذه الصناعة بعضَ دُرْبة وتجربة ، وبتجريباتها[٧] بعض خبرة ، وهو أكبر المنجِّمين بها وكبيرهم الذى علمهم ، وأميرهم الذى يلوذون به[٨] ، فجميعُهم إليه منسوب ، وفى جريدته مكتوب ، وبفضله معترِف ، ومن بحره[٩] مغترِف ، وهو شيخ مطبوع يتطايب ويتخالع[١٠] .

ومن حكاياته الظريفة عن نفسه قال : سألتْنى امرأةٌ مِصريّة أن أنظرَ لها فى مسألة جُمَّليّة تخصُّها ، فأخذتُ ارتفاعَ الشمس للوقت ، وحقّقت درجة الطالع والبيوتَ الاثنى عشر ومركزَ الكواكب ، ورسمتُ ذلك كلَّه بين يدىَّ فى

---

(١) فى الأصل : « ولا يحلق » و « لا يستضىء » وأثبت ما فى ق .
(٢) فى الأصل : « ابن النصر » بالصاد المهملة . وأثبت ما فى ق .
(٣) هذه من ق .
(٤) ق : « من حسنات الزمان » .
(٥) فى اللسان : « ولب الجوز واللوز ونحوهما : ما فى جوفه ، والجمع اللبوب » . ق : « اللباب » ، وما أثبت من الأصل أوفق .
(٦) فى الأصل : « بن النحاس » وصوابه فى ق والقفطى ١٢٧ .
(٧) فى الأصل : « وبجزئياتها » وأثبت ما فى ق . وعند القفطى : « وبتجرباتها » .
(٨) ق : « الذى نوه بهم وقدمهم » وعند القفطى : « وكبيرهم الذى علمهم السحر » فقط .
(٩) فى الأصل : « ومن علمه » وأثبت ما فى ق .
(١٠) يتخالع : يظهر الخلاعة . وفى الأصل : « يتخالق » صوابه فى ق .

تَخت الحساب[١] ، وجعلت أتكلَّم على بيتٍ بيت منها على العادة ، وأنا فى خلالِ ذلك أتحسَّس أمرَها[٢] وهى ساكتةٌ لا تَنبِس ، فوجِمْتُ لذلك وأدركَتْنى فترةٌ عظيمة ، وألقتْ إلىَّ درهما[٣] . قال : فعاودتُ الكلام وقلت : أرى عليك قَطْعاً فى بيت مالِك[٤] فاحتفِظى واحترزى ! فقالت : الآن أصبتَ وصدقت ، قد كان والله ما ذكرت . قلت : وهل ضاع لك شىء ؟ قالت : نعم ، الدرهمُ الذى ألقيتُه إليك ! وتركَتْنى وانصرفَت .

* * *

والمصريُّون أكثرُ الناسِ استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلا عليها ، وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتّى إنه قد بلغَ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى أن لا يتحرّكَ واحدٌ منهم حركةً من الحركات الجزئية التى لا تُحصَر فنونُها ولا تحصَّل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تُضبط جهاتها ، ولا تقيَّد غاياتها[٥] ، ولا تعدُّ ضروبها إلا فى طوالعَ يختارونها ، [ونُصب يعتمدونها[٦]] .

ولقد شهدتُ يوما رجلاً من الوقَّادين فى أتُّون الحمّام[٧] ، يسأل رزق الله ذكور عن ساعةٍ حميدة لقصِّ أظفاره ، فتعجّبت من سموّ همته على خساسة قدره[٨] ، ووضاعة مِهنته .

ومن الحكايات العجيبة فى فرط استعمالهم لأحكام النجوم وعنايتهم بها ،

---

(١) هذا ما فى ق ، وفى الأصل : « فى التخت » .
(٢) ق : « أتحسس لها » .
(٣) القفطى : « وكانت قد ألقت إلى درهما » .
(٤) هذا ما فى ق والقفطى ، وفى الأصل : « ضياع بيت مالك » .
(٥) ق : « ولا تقدر أساليبها » .
(٦) هذه من ق .
(٧) ق : « أتون حمام » .
(٨) ق : « مع خساسة قدره » .

ما شهدتُ بالصعيد الأعلى . وذلك أنَّ بعضَ الولاة حبس رجلاً من [بعض[1]] أهل تلك الناحية كان ينظُر فى علم النجوم ، وشَفَع[2] إليه فيه مَن يكرُم عليه ، فشفّعه فيه ، وأمر بإطلاقه وكان من الحبس فى عذاب واصب ، وجَهدٍ ناصب ، فلما أتوْه وقالوا له : انطلِقْ لشأنك[3] ، أخرَجَ من كُمّه أُصطُرلاباً فنظر فيه ثم أخذ طالعَ الوقت فنظر فيه ، فوجده مذموماً ، فسألهم أن يتركوه مكانه[4] إلى أن يتّفِق وقتٌ يصلح للخروج من السجن ، فعادوا إلى الوالى فأخبروه بخبره[5] ، فضحِك منه وتعجّب من جهله ، وفساد عقله ، وأجابه إلى سؤاله ، وتَرَكه على حاله ، وأطال مدّةَ اعتقاله .

وفيما أوردْته من أخبار الأطباء والمنجمين الآنِ بمصرَ كفايةٌ و بلاغ ، إلى أن انتصبَ له انتصاباً ثانياً ، فأقول فيه قولا شافياً .

* * *

وأما الآن فإنى ذاكرٌ على الشرط من لقيتُه من أدبائها وظرفائها ، وفضلائها فى الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ، وأحقهم بالحظ الأوفر من التعظيم « القاضى أبو الحسن على ابن النضر[6] » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل البارع . وله فى سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولَى . وقد كان ورد الفسطاطَ يلتمس من وزيرها الملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة فخاب فيه أمله ، وضاع

---

(١) هذه من ق .

(٢) ق : « فشفع » .

(٣) ق : « لسبيلك » .

(٤) فى الأصل : « أن يصبروا عليه » ، وأثبت ما فى ق .

(٥) فى الأصل : « خبره » ، وأثبت ما فى ق .

(٦) فى الأصل : « النصر » بالمهملة ، تحريف صوابه فى ق والخريدة (٢ : ١٩٥) من مخطوطة دار الكتب رقم (١٠٠٩٨ ز) والطالع السعيد للأدفوى . حيث ذكر أنه كان أحد عمال الديار المصرية فى زمن الأفضل شاهنشاه .

رجاؤه ، وأخفق سعيُه ، فقال من قصيدةٍ يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الخَيبة والحِرمان :

بيْن التعزُّزِ والتذلُّلِ مسلكٌ … بادى المَنار لعينِ كلِّ موفَّقِ
فاسلُكه فى كلِّ المواطن واجتنبْ … كِبر الأبىّ وذِلَّةَ المتملِّق
ولقد جلبت من البضائع خيرَها … لأجَلِّ مختارٍ وأكرم مُتَّقِ(١)
ورجوتُ خَفضَ العيش تحت رِواقه … لا بدّ إن نفقَت وإن لم تنفُقِ(٢)
ظنًّا شبيهاً باليقين ولم أخَلْ … أنَّ الزمان بما سقانى مُشرِقى
ولِعائبى بالحرص قولٌ بيّن … لو كنت شِمتَ سحابةً لم تطرق(٣)
ما ارتَدْتُ إلاّ خيرَ مرتادٍ ولم … أصِلِ الرجاءَ بحبلِ غيرِ الأوثَقِ(٤)
وإذا أبَى الرزقَ القضاءُ على امرئٍ … لم تُغنِ فيه حيلةُ المسترزِق
ولَعَمرُ عاديةِ الخطوب وإنْ رمت … شملى بسهم تشتُّتٍ وتفرُّق(٥)
لأقارعنَّ الدّهرَ دون مروءَتى … وحُرِمتُ عزَّ النصرِ إن لم أصدُق(٦)

وله في سَفرته هذه(٧) وقد قوى يأسُه من بلوغ أمله ونيل بُغيته ، وعَزَم على الصَّدَر(٨) عن الفُسطاط إلى مستقرِّه . يحضُّ على الزَّهادة ، ويحرِّض على القَناعة

(١) فى الأصل :
ولقد جنبت من البضائع جلها … من كل مختار وأكرم ما اتقى
وأثبت ما فى ق والخريدة والطالع السعيد . بيد أن الكلمة الأخيرة فى الطالع السعيد : « موثق » .

(٢) ق : « ووجدت » . وكلة « رواقه » هى فى الأصل : « ظلاله » وأثبت ما فى ق والخريدة . وفى الطالع السعيد : « تحت ردائه » تحريف .

(٣) فى الأصل : « ولعائبي » صوابه فى ق . وفى الخريدة : « ولماتبي » .

(٤) ق : « بغير حبل الأوثق » وفى الخريدة : « بحبل غير موثق » .

(٥) فى الأصل : « رمت حظى » صوابه فى ق والخريدة .

(٦) فى الأصل : « لأصبرن اليأس » صوابه فى ق والخريدة .

(٧) فى الأصل : « وله من قصيدة غير هذه » وأثبت ما فى ق والخريدة .

(٨) ق : « الصدور » وهما صحيحان ، يقال صدر يصدر صدراً وصدوراً .

obeikandi.com

ويذمّ الضّراعة ، ويتأسّف على إذالة خدِّه ، وإراقة ماء وجهه :

لَهفى لملك قنــاعةٍ لو أنّنى   متعت فيـه بعزّة المتملكِ
ولِـكنزِ يأسٍ كنتُ قد أحرزتُه   لو لم تعِثْ فيـه الخطوبُ وتَفتِكِ
آليتُ أجعلُ ماء وجهى بعده   كدمٍ يُهِلُّ به الحجيجُ بمَنْسِك
وأخٍ من الصبر الجميل قطعتُه   فى طاعة الأمل الذى لم يُدرَكِ
يا قاتَلَ اللهُ الضرورة حالةً   أىَّ المسالكِ بالفتى لم تَسلكِ(١)
كم بات مشكوٌّ إليه [تحيفت   حلقاته قرعا] براحةِ ممسك(٢)
وفمٍ على قدم رمت ، ونواظر   كُحِلت محاجرُها بموطىء سُنْبُك(٣)
ومُسربَلٍ بالصبر والتقوى دعت   فأجابها فى مِعرَض المتنسِّك(٤)
ظلّت تصرِّفه كتصريف العصا   رأسَ البعير لمبرك عن مَبرك

وله إلى رئيس كان يكلّفه زيارته ويقعد عن ذلك تعاظما وتكبراً :

أكبرتَ نفسك أن تسعى مصادفةً   وسُمتَنيه لقد كلّفتنى شَططا(٥)
لا تكذبنَّ فما كنّا لنُوجِب من   حقٍّ وأنت تراه عنك قد سقطا
لو بعتُك النفس بيعاً كنت تملكها   به لـكان عليك العَدل مشترَطا(٦)
فهل سبيلٌ إلى أن لا تواصلنى   ولا تكلِّف مثلى هذه الخططا(٧)
عسى صحيفةُ ما بينى وبينك أن   تُطوَى وما ضمِّنتْ غيرَ الذى فرطا(٨)

---

(١) هذا ما فى ق والخريدة ، وفى الأصل :

يا قاتل الله الضرورة إنهـا   سلـكت مهالك بالفتى لم تسلك

(٢) فى الأصل : « لم يأت » ، وصواب البيت وتكملته من ق والخريدة .

(٣) هذا البيت ساقط من الأصل .

(٤) فى الأصل : « ومسربل بالنصر » صوابه فى ق والخريدة .

(٥) فى الأصل والخريدة : « مصارفة » بالراء ، وأثبت ما فى ق .

(٦) ق والخريدة : « به على لـكان العدل » .

(٧) فى الأصل : « ولا تكلف مثلى الطرق والخططا » صوابه فى ق والخريدة .

(٨) فى الأصل : « وما قد من أمرنا فرطاً » صوابه فى ق والخريدة .

وله[١] فى صدر رسالة :

أتَى كتابُك عن سُخط فآنَسَنى ... بما تضمَّن أُنس العين بالوسنِ[٢]
قرأتُه فجرت فى كلِّ جارحة ... منِّى معانيه جرىَ الماء فى الغُصُن[٣]
فما أقول بعثتَ الروح فيه إلى ... قلبى ولكنْ بعثتَ الروح فى بدنى

وله فى شدّةٍ أصابته :

يا مستجيبَ دعاء المستجير به ... ويا مفرِّج ليلِ الكُربة الداجى
قد أُرتِجت دوننا الأبوابُ وامتنعت ... وجَلَّ بابُك عن منعٍ وإرتاج
نخافُ عدلَك أن يجرى القضاء به ... ونرتجيك فكنْ للخائف الراجى[٤]

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة[٥]، وهو شاعر كثير التصرُّف، قليل التكلُّف، مفتَنٌّ فى وشْيِ[٦] جِدِّ القريض وهزله، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله. وكان فى رَيعان شبيبته، وعُنفوان حداثته، يعشِق غلاماً من أبناء عسكريّة المصريين، يدعى عز الدولة فائق، وهو الآن بمصر من رجال دولتها المعدودين وأكابرها المقدمين. ولم يزلْ مقيما على عِشقه له، وغرامه به إلى أن محا محاسنه الشَّعر، وغيّرَ معالمَه الدّهر. ولم يزل مُعزُّ الدولة[٧] هذا متعهِّداً له محسناً إليه، مشتملا عليه، إلى أن فرَّق الدهر بينهما. وكان فى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى منقطعاً إلى عاملٍ من النصارى يعرف بأبى مليح،

(١) بعد هذه الكلمة فى الأصل بياض بقدر صفحتين من الأصل، وقد أمكننى سد هذه الثلمة من ق والخريدة. والقدر المشترك بين ق والخريدة ينتهى إلى كلمة « الراجى » ختام الأبيات الجيمية التالية، ثم تنفرد « ق » بإتمام النقص الذى سأنبه على نهايته.

(٢) فى الخريدة : « فأبأسنى »، تحريف صوابه فى ق والطالع السعيد. وصدره فى الطالع السعيد (٢٢٢) : « وافى كتابك ».

(٣) فى الطالع السعيد : « نفخت الروح ».

(٤) إلى هنا ينتهى القدر المشترك من التكملة بين ق والخريدة، ثم تنفرد « ق ».

(٥) ترجم له ابن شاكر فى الفوات (١ : ٢٦ :) وقال « توفى فى حدود الخمسمائة ».

(٦) فى الأصل : « وعى ».

(٧) سبق قريباً بلفظ « عز الدولة فائق » وهكذا وردا بالأصل.

وأكثرُ أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل تعرّض لامتداحه ، فلم يقبله ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق لأبى مليح ومراثيه ميتاً ، لا سيما قوله :

طُوِيت سماء المكرما ... تِ وكُوِّرت شمسُ المديحِ
ما كان بالنّكس الدنـ ... ـىّ من الرجال ولا الشحيح
كَفَر النصارى بعد ما ... عَقَدوا به دين المسيح

وكَفَله عزُّ الدولة بن فائق ، وقام بحاله إلى أن مات .

ولم يُقبل الأفضلُ على أحدٍ من الشعراء كإقباله على رجل من أهلِ مَعرّة النعمان[1] يدعى أبا الحسن على بن جعفر بن النون[2] فإنه أفاض عليه سحائبَ إحسانه ، وأدرَّ له حلوبةَ إنعامه ، ولقّبه بأمين [الملك[3]] وأدناه واستخلصه ، ولم يكن شعرُه هناك[4] بل كان متكلّفاً متعسّفاً ، ولست أعرف أحداً من أهل تلك البلاد يَروِى له بيتاً واحداً فما فوقَه ، لمنافرة الطِّباع كلامَه ، ونبوِّ الأسماع عن طريقته . وقد كان أمرَه الأفضلُ يوما أن يصِف مجلسا عُبِّيَت فيه فواكهُ ورياحين ، فقال من مزدوجته[5] يصف الأترجّ المصبَّع :

كأنّما أترُجُّه المصبَّعُ ... أيدى جُناةٍ من زُنودٍ تقطعُ

فغلِط ولم يفطَن ، وأساء أدبَه ولم يشعر ؛ لأنه قصد مدحَ الأترجّ فقزّز نفس الملك منه ، وصرفَها عنه ، ولو قصد ذمَّه لما زاد على ما وَصَف به ، من الأيدى المقطوعة من زنودها .

والبليغ الحاذقُ من إذا وصَفَ شيئا أعطاه حقَّه ، ووفّاه شرطَه ، ووصفه بما

(١) إلى هنا ينتهى السقط الذى نبهت عليه فى أول الصفحة السابقة .
(٢) ق : « النوين » .
(٣) هذه من ق .
(٤) فى الأصل : «هناك بالجيد» صوابه فى ق ، وكلمة « بالجيد » مقحمة .
(٥) فى الأصل : « مزدوجات » صوابه فى ق .

obeikandi.com

يناسبه فى حالتَىْ مدحه وذمّه ، ووضع كلّ شىء فى مكانه فى نثره ونظمه[1] .

فأين هذا الشاعر فى أدبه وحذقه بالصناعة[2] وفطنته ، من أبى على الحسن ابن رشيق ، وقد أمره المعزّ بن باديس أن يصف أترجّة [مصبَّغة[3]] كانت بين يديه[4] ، فقال مرتجلاً على البديهة :

أترجّة سَبطة الأطرافِ ناعمةٌ ... تَلقى العيونَ بحُسنٍ غير مبخوسِ[5]

كأنّها بَسطت كفًّا لخالقها ... تدعو بطول بقــاء لابن باديس

ولو أنّ ابن الرومىّ قصد مَدح الوَرد بقوله :

يا مادحَ الورد ماينفك من غَلطِه[6] ... أما تأمّلتَه فى كفّ ملتقِطِه

كأنّه سُرم بغلٍ حين يُبرِزُه ... عند الخِراء وباقى الرَّوث فى وسطه

لكان غالطا أو جاهلا أو غافلا ، بل قال ذلك حين قصد ذمَّه وأراد تخسيسه . فانظر هذا التشبيهَ الذى لم يُسمع أعجبُ منه . فلعن الله شيطانه[7] .

وكذلك عبد الله بن المعتز فى قوله يصف القمرَ من أبيات :

وباتَ كما سرَّ حُسّــادَه ... إذا رام قُرباً من النوم شذّ[8]

تفزِّزهُ سروات البَعوضِ ... فى قمر مشــل ظهر الجرذْ[9]

وقول ابن المعتز فى القمر من أبيات :

ياسارقَ الأنوارِ من شمس الضحى ... يامُثْكلى طيبَ الكرى ومُنَغِّصى

---

(1) ق : « من نثره ونظمه » .
(2) ق : « ومعرفته بالصناعة » .
(3) هذه من ق .
(4) فى الأصل : « كانت فى يده » وأثبت ما فى ق .
(5) مبخوس : منقوص . وفى الأصل « منحوس » ، صوابه فى ق .
(6) هذا ما فى ق وفى الأصل : « من غلط » .
(7) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « فلعن الله ذلك » .
(8) فى ديوان ابن المعتز (2 : 116) : « كما سر أعداءه » .
(9) فى الأصل : « فن قر » صوابه من الديوان .

obeikandi.com

أمّا ضياء الشمس فيك فناقصٌ وأرى حرارة نارها لم تنقُص
لم يظفر التشبيهُ فيك بطائل متسلّخاً بَهَقاً كجلد الأبرص[١]

وهذا بابٌ لو استقصيناه لطال واتسع[٢] ، فلنتركه ولنصلْ من حبلنا ما انقطع[٣] .

* * *

وقال إسماعيل بن مكنسة[٤] من قصيدة :

أعاذلُ ما هبّت رياحُ ملامةٍ بنار هوًى إلا وزادت تضرُّما
فكُفّي إلى عينٍ إذا جفّ ماؤها رأتْ من حقوق الحبِّ أن تذرِف الدّما
فكم عَبرةٍ أعطت غرامى زِمامَها عشيّةَ أعمانَ المطيَّ المزمّما
وعَينٍ حماها أنْ يُلمَّ بها الكرى أحاديثُ أيام تقضّين بالحمى
ولله قلبٌ قارعته همومُه فلم يبق حَدٌّ منه إلا تثلما[٥]

وله من أخرى :

دقّت مَعاقد خصرِه فكأنّها مشتقّة من عهده وتجلُّدى[٦]
وتجعّدَتْ أصداغُه فكأنّها مسروقة من خَلقه المتجعِّد[٧]

[ومنها[٨]] :

---

(١) فى الديوان : « منك بطائل » . وفى الأصل : « بمسلخ » صوابه فى ق وفى الديوان : « متسلخ » .
(٢) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « لو استقصيته لاتسع » .
(٣) هذا ما فى ق . وفى الأصل : « من غرضنا ما انقطع » .
(٤) ق : « أبو الطاهر بن مكنسة » ، وكلاهما صحيح .
(٥) فى الأصل : « مثلما » وأثبت ما فى ق والخريدة (٢ : ٣٠١) .
(٦) فى الأصل : « من قده » صوابه فى ق . وفى الخريدة (٢ : ٢٩٩) « من تيهه » ، وليست بشىء .
(٧) فى الأصل : « من شعره » وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٨) هذه من ق .

ما باله يجفو وقد زَعَم الورى   أنّ الندى يختصُّ بالوجه الندِى(١)
لا يخدعنَّك وجنـةٌ محمرّة   رقّت ففى الياقوت طبع الجلمدِ

وله من قصيدة :

وعَسكرىٍ أبداً حيثما   تلقاه يلقاكَ بكلٍّ السّلاحْ
حاجبُـه قوس وأجفانُه   نَبلٌ وعِطفاه تثنّى الرّماح
[راح وفعلُ الراح فيه كما   يفعل بالغصن نسيمُ الرياح(٢)]

أغار فى هذا البيت الأخير على خالدٍ الـكاتب فى قوله :

رأتْ منه عينى منظرينِ كما رأت   من الشّمس والبدر المنيرِ على الأرضِ(٣)
عشيّةَ حَيّـــــــانى بوردٍ كأنه   خدودٌ أضيفَت بعضُهن إلى بعض(٤)
[وناولنى كأساً كأنّ مزاجها   دموعىَ لما صدَّ عن مقلتى الغمض(٥)]

***

وراحَ وفعـلُ الرّاح فى حركاته   كفعل نسيم الرّيح فى الغصن الغضٍّ

وأما البيت الذى قبله(٦) فقد تداوله الشعراء . ومن مليح ما وقع فيـه قولُ بعضِ أهل العصر :

بى مِن بنى الأصفر ريمٌ رمى   قلبى بسهم الحَوَر الصائب
سهمٌ من اللحظ رمتنى به   من كَثَب قوسٌ من الحاجب
كأنمـا مقلته فى الحشى   سيفُ علىّ بن أبى طالب

وله فى ورق كاغد أهدى إليه :

(١) كلمة « يجفو » ساقطة من الأصل . وإثباتها من ق والخريدة .
(٢) البيت ساقط من الأصل ، وإثباته من ق والخريدة (٢ : ٣٠١) .
(٣) فى الأصل : « كأنما هو الشمس » ، وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٤) فى الأصل : «على بعض» ، وأثبت ما فى ق .
(٥) هذا من الخريدة فقط .
(٦) يعنى قوله :

حاجبه قوس وأجفـــانه   نبل وعطفاه تثنى الرماح

obeikandl.com

أهدى لنا ورقاً أرَ قَّ من الشراب المستحيلِ
خُلَقاً تمزقه الخطو ط كأنه عِرضُ البخيل
لا بالصَّبيغ ولا الصَّقيـ ل ولا العريض ولا الطويل
إلاّ بياضًا خلتـه وضَحاً على جسم نحيل(١)

وقد استوفى بعضُ أهل العصر هذا المعنى ، فقال يذكر رِزْمة كاغد أخرجت إليه من خِزانة السلطان ، تستعمل فى ديوان الإنشاء ، وكان بعض كتاب الديوان يسرق الكاغد ، فَسلِمت تلك الرِّزمةُ منه لدمامتها وخِسّة ثمنها :

وكاغدٍ يشبه حالاتِنا فى كلِّ معنى ويحا كيها
جُنْسٍ للخطِّ به صورة لا شىء فى القبح يدانيها(٢)
ينفُذ فى صفحته كلُّ ما ترسُمهُ أقلامُنا فيها
نُودِعهُ مكنونَ أسرارِنا وهو إلى الألحاظ يُفشيها
مختلفُ الأجزاء مستخشَنٌ تلمَسهُ الكفُّ فيُدميها
كجِلدة الأبرصِ فى لونه وصفاً على الحق وتشبيها
لو كان خُلقاً كان مستبشَعاً أو كان خَلقاً كان تشويها
يعثِّر الأقلامَ حتَّى تُرى مفلولةً فيه مواضيها(٣)
يتركها نشبةُ أعجازُها فى عدم البَرْى هَواديها(٤)
من بعد ما ضاهَى بأطرافها أطرافَ سُمرِ الخطِّ باريها(٥)

(١) هذا البيت ساقط من ق .
(٢) فى الأصل : « فيها ما يدانيها » صوابه من ق
(٣) يقال أعثره إعثاراً وعثره تعثيراً . وفى الأصل : « يغير الأقلام » وأثبت ما فى ق .
(٤) الكلمة الأولى ساقطة من الأصل ، كما سقطت كلمة « البرى » ونصف الكلمة التى بعدها ، وإتمامه من ق . وفى ق : « فى قدم البرى » ، ووجهه ما أثبت من الأصل . وهواديها بمعنى أوائلها ، أى رءوسها .
(٥) ورد البيت فى الأصل مبتوراً ، منتهياً بكلمة « أطراف » وإتمامه من ق .

وتفعل الأنملُ في جريها كالـــبرق .... يهـا[١]
وكم غدا يسـلُبها جاهداً مَن كان بالنفس يفديِّها
يقول مَن يبصر أطباقَه شَلَّت يدٌ باتت تعبِّيها
قد عَبِث السوسُ بأوساطِها وقَرَّض الفأرُ حواشيها[٢]
لو عُرِضت رِزمتُهُ لم تجد مشتريًا في الخَلْق يشريها
لو بَذَل الفَلسَ بها غالطًا أُوسِعَ تضييعًا وتسفيها[٣]
لا يرزأ السارقُ منها ولا يغتالها من حيلة فيها[٤]
تُحْصِى الحصى مستوفيًا عدَّه من قبل أن تُحْصِى مساويها[٥]
من ذمَّ ذا نقصٍ وذا خسّةٍ فهو بذاك الذمِّ يعنيها[٦]

وقال أبو الطاهر[٧] :

قلتُ إذ عقربَ الدلا لُ على خده الشَّعَرْ
هــذه آيةٌ بها ظهر الحسنُ وانتشر
ما رُئِى قبلَ صُدغه عقربٌ حلّت القمر[٨]

هذا معنًى مليح ولكنّه سرقه من بيتين أنشدَنيهما بمصر رجل يسمى أبا محمد التِكريتيّ من تلاميذ أبي حامد الغزالي لأبي حامد ، ولم أسمعهما من غيره :

---

(١) كذا جاء البيت في الأصل ، وهو ساقط من ق

(٢) في الأصل : « بأطرافها » ، والوجه ما أثبت من ق .

(٣) تضييعا ، كذا وردت .

(٤) في الأصل : « نعبا لها » صوابه في ق . و « من حيلة » هي في الأصل و ق : « في حيلة » .

(٥) مستوفياً عده ، مكانها بياض في الأصل ، وإثباتها من ق .

(٦) كلمة « وذا خسة » موضعها أبيض في الأصل ، وإثباتها من ق .

(٧) هو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد ، المعروف بابن مكنسة ، وقد سبق التنبيه على اسمه في ص ٤٣ .

(٨) في الخريدة (٢ : ٣٠٢) : « ما رُئى قط قبل ذا » .

obeikandi.com

حَلّت عقاربُ صُدغه فى خدّه   قمراً يجلّ بها عن التشبيه[١]
ولقد عهـــدناه يحلُّ ببُرجها   فمن العجـائب كيف حلَّت فيه

وقال أبو الطاهر أيضا من قصيدة وقد عزم عليه بعضُ الأمراء فى الخروج[٢] معه إلى الشام لقتال الغُزّ[٣] ، أوّلها :

غير عاصٍ عليكِ تقويمُ عُودى   فانقُصى من ملامتى أو فزيدى[٤]
قل لمولاى إذ دعانى لأمر   قمتُ فيـــه له مقامَ العبيد
ضعفَتْ حيلتى وقلَّ غَنَـــائى   ودنت غايتى وَرَثَّ جديدى[٥]
أنا مالى وللشـــآم وإنى   لأرى نار حربها فى وَقود
بلدٌ جِنَّـــهُ عفاريةُ الغُ   زِّ وأرضٌ وحوشُها من أُسود[٦]
والجِفـار التى تقول إذا ما   قيل هَلّا امتلأتِ : هل من مزيد[٧]
وكأنْ بى على بعـيرٍ ترانى   آخرَ الناس فى لفيف الُحْشود[٨]
أسودَ الوجــه ناظراً فى أمور   معضِلاتٍ من الحوادث سُودِ

(١) وكذا روى فى وفيات الأعيان ، فى ترجمة أبىحامد الغزالى . وفى الخريدة وق : « يجل به عن التشبيه » . قال ابن خلـكان : « ورأيت هذين البيتين فى موضع آخر لغيره » .

(٢) ق : « فى المسير » .

(٣) فى اللسان والقاموس أن « الغز » جنس من الترك .

(٤) فى الأصل : « غير عاض » صوابه من الخريدة (٢ : ٣٠٨) . وفى ق : « عاس » يقال عسا إذا اشتد .

(٥) الغناء ، بالفتح : النفع . وفى الأصل : « عنائى » صوابه فى ق والخريدة (٢ : ٣٠٨) .

(٦) فى الأصل : « حنة » صوابها فى ق والخريدة . والعفارية بياء قبل الآخر : جمع عفرية ، وهو العفريت . وفى الأصل : « عفاربه » وفى ق والخريدة : « عفارتة » صوابهما ما أثبت . انظر اللسان (عفر ٢٦٣) .

(٧) الجفار : جمع جفرة بالضم ، وهى الحفرة الواسعة المستديرة . وفى الأصل و ق : « الذى يقول » صوابه فى الخريدة . وفى الخريدة : « قيل امتلأت هل مزيد » وفى ق : « قيل هل امتلأت » ولا يستقيم الوزن بأحدها . والوجه ما أثبت

(٨) فى الأصل : « وكأنى على » وأثبت ما فى ق والخريدة .

opeikandi.com

وإذا قيل فى غدٍ يلتقى النا   سُ فلا تنسَ فهو بيت القصيد
حيثُ لا ناظرى تراه حديداً   حينَ يبدو له بريقُ الحديد
حيثُ لا يُتَّقى لسانى ولا يَثْـ   ـنى عنانَ المغير عنّى نشيدى(١)
إنّ رأيى إذا يُسدَّد نحوى   سهمُ رامٍ لغير رأى سديد(٢)
فإذا ما قُتِلتُ كنت خليقاً   بدخولى جهنّما وخلودى
فأقلنِى عثارَها وابقَ للمجـ   ـد وكبتِ العدى وغيظِ الحسود(٣)

وقال من قصيدة فى طريقة أبى الشَّمَقْمق(٤) :

أنا الذى حَدَّثكم   عنه أبو الشّمقمقِ
وقال عنّى إننى   كنتُ نديمُ المتّقى
وكنت كنت كنت كنـ   ـتُ مِن رماة البُنـدق
حتّى متى أَلقَى كذا   تيساً طويلَ العنق(٥)
بلحيةٍ سـابلة   وشارب محلَّق(٦)
[يا ليتَها قد خُلِقت   من وجه شيخٍ حَلَقى(٧)]

وقال(٨) مِن أخرى :

عشتُ خمسين بل تزيـ   ـدُ رقيعاً كما ترى

(١) ق : « رأس البعبر عنى » ، وفى الخريدة : « زمام البعير » .
(٢) ق والخريدة : « إذا تسدد نحوى » ، يقال سدده فتسدد .
(٣) ق والخريدة : « وابق للحمد » .
(٤) ق : « أبو الرقعمق » وهو شاعر آخر وليس مراداً . أما أبو الشمقمق فهو مروان بن محمد وكان معاصراً لبشار وأبى نواس . وترجمته فى « تاريخ بغداد » ٧١٢٨ وابن خلكان فى تضاعيف ترجمة يزيد بن مزيد . ولم يفرد له ترجمة . وأما أبو الرقعمق فهو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى ، وترجم له الثعالبى فى اليتيمة (١ : ٢٣٨) وابن خلكان فى الوفيات (١ : ٤١) .
(٥) ق والخريدة : « حتى متى أبقى .
(٦) فى اللسان : « يقال سبل سابل » . وفى الخريدة : « بلحية مسبلة » .
(٧) البيت من ق والخريدة . والحلق : المأبون ، وجاءت فى أصلها : «حلق» محرفة .
(٨) فى الأصل: « وقوله » ، صوابه فى ق .

obeikandl.com

أحسبُ المُقْل بندقاً وكذا المِلحَ سكّرا[١]
وأظنُّ الطويل من كل شيء مدوّرا
قد كبِرت كبِرت كبِرْ تُ وعقلي إلى ورا
عجباً كيفَ كلُّ شي ء أراه تَغيّرا
لا أرى البَيض صار يؤ كل إلاّ مقشَّرا
وإذا دقَّ بالحجا ر زجاجٌ تكسرا
وإذا مات ميّت لا يشمَّنَ عنبرا[٢]

***

ومن شعراء المصريين فى زماننا هذا من يقول — وهو أبو مشرف الدجرجاوى[٣] ، وهو منسوب إلى دجرجا ، وهى ضيعة[٤] بالصعيد الأعلى :

قاضٍ إذا انفصل الخصمان ردَّهما إلى الخِصام بحكمٍ غيرِ منفصلِ
يبدِى الزّهادةَ فى الدنيا وزُخرفِها جَهراً ويقبل سراً بَعرَةَ الجمل

ومنهم من يقول ، وهو أبو الحسن علىّ بن البرق ، من أهل قُوص :

رمانى الدهرُ منه بكلِّ سهمٍ وفاجأنى ببينٍ بعدَ بين[٥]
وجمَّع فى فؤادى كلَّ حزنٍ وفرّق بين أحبابى وبينى
ففى قلبى حرارةُ كلِّ قلب وفى عينى مدامعُ كلِّ عين

وله من أبيات :

ولى سَنَةٌ لم أدر ما سِنَةُ الكرى كأنَّ جفونى مسمعى والكرى العذلُ[٦]

(١) المقل : ثمر الدوم . وفى الأصل : « البقل » ، وفى ق والخريدة : « المصل » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « سكرا . وأحسب الملح سكرا » ، صوابه فى ق والخريدة .

(٢) البيت ساقط من ق والخريدة . وفى الأصل : « لا يسمن » تحريف .

(٣) قال ياقوت ، عند الكلام على دجرجا : «قد خرج منها شاعر متأخر يعرفه المصريون يقال له (أبو) المشرف . وله شعر جيد» وفى الأصل : «الدجرجراى» صوابه فى ق والخريدة .

(٤) فى الأصل : « إلى ضيعته دجرجرا وهى » صوابه فى ق .

(٥) فى ق ركب صدر هذا البيت على عجز تاليه فصارا بيتاً واحداً . وكذا جاء فى الطالع السعيد للأدفوى ٢١٩ .

(٦) فى الأصل : « وبين جفونى » صوابه فى ق والخريدة والطالع السعيد . والكلمة الأخيرة من البيت ساقطة من الأصل وإثباتها من النسخ الثلاث .

obeikandi.com

ومنهم من يقول ، وهو أبو محمد عبد الله بن الطباخ الكاتب ، يهجو رجلاً أوقصَ . أنشدتُهما لأبى الحسن [على بن[١]] الصوفى الحنبلى[٢] :

قَصُرت أخادعُه وغاض قذالُه فكأنه متوقِّع أن يُصفَعا[٣]

وكأنه قد ذاق أوّل دِرّة وأحسّ ثانية لها فتجمَّعا

ومنهم من يقول ، وهو أبو عبد الله محمد بن مسلم الكاتب :

تعسَّفها الحادى وقد هَجَر الفلا ومرَّ عليها الخمسُ يتبعه العِشْر[٤]

وأنحلها لفحُ الهجير كأنّه هوًى وهو قلبٌ قد أضرَّ به الهجر

ومنهم من يقول ، ولا أتحقَّق اسمه ، فى رجلٍ يلقب بالرشيد[٥] :

شتّان ما بين الرشيدِ وبين هارونَ الرشيد

هذا يعزَّر بالجلو د وذا يعزَّز بالجنود[٦]

ومنهم من يقول ، وهو محمود بن ناصر الإسكندرى[٧] كاتب القاضى ابن حديد ، فى طبيبٍ أعلمَ مشوّه الخلق :

صديقنا المستطِبُّ نادرةٌ قد أخذت منه أعينُ الناس[٨]

أنيابُ غول ومِشفرا جملٍ ورأسُ بغل وذَقن نَسناس

ومنهم من يقول ، وهو أبو نصر ظافر بن قاسم المعروف بالحداد[٩] من أهل الإسكندرية ، وكتب إلىَّ بها فى رسالة :

---

(١) هذه من ق .
(٢) ق : « الجبلى » .
(٣) فى الأصل : « وغاب قذاله » ، وأثبت ما فى ق .
(٤) فى الأصل : تمشقها » ، صوابه ما فى ق .
(٥) فى الأصل : « يسمى هارون الرشيد » وأثبت ما فى ق .
(٦) التعزير : ضرب للتأديب دون الحد . وهذا هو الوضع الصحيح للبيت كما فى الأصل . وجاء على العكس فى ق وليس بشىء :

هذا يعزز بالجنو د وذا يعزر بالجلود

(٧) ق : « الإسكندرانى » .
(٨) فى الأصل : « قد أخذتها من أعين الناس » صوابه فى ق والخريدة .
(٩) ترجم له ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » وياقوت فى « إرشاد الأريب » وذكرا أنه توفى سنة ٥٢٩ .

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جَناحَه … فأعدَمَه وكراً وأفقَـــدَه إلفا
تذَكَّر زُغباً بين أفنانِ أيكةٍ … خوافى الخوافى ما يَطِرن بها ضعفا
إذا التحف الظّلماء ناجي همومَه … بترجيع لحنٍ كاد من رِقّة يخفى(١)
بأشوقَ منى إذْ أطاعت بكَ النوى … هوائيةٌ مائية تسبِق الطرفا
تولّت وفيها منك ما لو أقِيسُه … بما هى فيه كان فى فضله أوفى(٢)

وقال أيضاً :

رَحَلوا فَــــلولا أنَّنى … أرجو اللِّقا لقضَيتُ نحبى(٣)
والله ما فارقتُــــكم … لـكنَّنى فارقتُ قلبى(٤)

ومنهم من يقول ، وهو أبو القاسم بن رشد(٥) المصرى :

وكم قائلٍ لىَ سافِرْ إلى … بلادِ العراق تَقَعْ فى الرّخاء(٦)
لعمرى لقد صدقوا قد وقعـ … ـتُ وسط الرخاء بتقديم خاء

ومنهم من يقول — وهو الناجي المصرى — يهجو حمّاما :

إنَّ حمامَنا الذى نحنُ فيه … هو فى حاجةٍ إلى حَمّامِ
قد دَخلنا ونحن أولاد سامٍ … وخرجنا ونحن أولاد حامِ

وقال بعضُ أهل العصر فى هذا المعنى :

حمّامنا هذا أشدُّ ضرورةً … ممن يحلُّ به إلى حمّامِ
تبيضُّ ألوان الورى فى غيرِه … ويُعيرها هذا ثيابَ سُخام
قد كنتُ من سامٍ لحين دخلته … لَشقاء جَدِّى ردَّنى من حام(٧)

ومنهم من يقول ، وهو أبو الحسن مروان بن عثمان :

تمكَّنَ منى السُّقم حتّى كأننى … توهُّم معنًى فى خفىِّ سـؤالِ

---

(١) ق : « من دقة » . (٢) ق : « كان فى وصفه وفى »
(٣) ق : « أرجو الإياب قضيت نحبى » . (٤) ق : « والله ما فارقتهم » .
(٥) فى الأصل : « بن زبيد » وأثبت ما فى ق .
(٦) ق : « الرخا » بالقصر ، وكذا « خا » بالقصر فى البيت التالى .
(٧) فى الأصل « دخلتها » صوابه فى ق والخريدة (٢ : ٣٠٥) .

obeikandl.com

[ولو سامحت عيناه عينيَّ فى الكرى … لأشكَلَ من طيف الخيال خيالى[1]]
سمحتُ بروحى وهى عندى عزيزةٌ … وجُدت بقلبى وهو عندىَ غالى
وقد خفتُ أن تقضى علىّ منيَّتى … ولم أقضِ أوطارى بيوم وصال[2]
وهوَّنَ ما ألقى من الوَجد أنّه … صدودُ دلالٍ لا صدودُ مَلال
فلو كان ذاك الصدُّ منه ملالةً … شددت عن الدنيا مطىَّ رحالى[3]

هذا من قول العباس بن الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكَّنَ لوعتى … أملى رضاك وزرتُ غير[4] [مراقب
لكن صددتِ فلم تكنْ لىَ حيلة … صدُّ المَلول خلاف صَدّ العاتب

ولمروان :

ما بالِ قلبك يستكينُ … أبه غرام أم جنونُ[5]
بَرِحَ الخفاء بما تُجِنُّ … ، فأذهب الشكَّ اليقين
حتَّى متى بين الجوا … نح والضلوع هوًى دفين
وإلى متى قلبُ المتيـ … ـم فى يد البلوى رهين
يا ماطلى بديونِ قلـ … ـبى آنَ أن تُقضَى الديون
شخَصَت له فيك العيو … نُ وقسِّمت فيك الظنون
وسلبتَ ألبابَ الورى … بلواحظٍ فيها فتُون
وقَوامِ أغصان الريا … ض وأين تدركُك الغصون
الحسنُ فى الأغصان فـ … ـنٌّ وهو فى هذا فنون

(١) البيت من الخريدة (٢ : ٢٠٣) .
(٢) فى الأصل : « منية » وأثبت ما فى ق والخريدة .
(٣) هذا البيت ساقط من ق .
(٤) بعد هذا بياض فى الأصل بقدر نحو صفحتين ، وقد أكملته من ق والخريدة (٢ : ٢٠٤) ، والقدر المشترك بينهما فى التكملة هو السطر الأخير فقط مما وضع بين معكفين ، وأما سائر التكملة فهو من الخريدة فقط . (٥) يجوز فى رويه الإسكان والتحريك .

obeikandi.com

من أين للأغصان ذا — لكِ الغُنْجُ والسحرِ المبين

أم ذلك الورد الجنيّ — بخدِّه والياسمين

ومنهم من يقول ، وهو أبو إسحق إبرهيم بن الأشعث] :

إذا حلّ محمودٌ بأرضٍ فإنه — يفجِّر فيها من نَدَى كفِّه عينا(١)

فتُنبت نوراً مشبهًا لهِباتِهِ — يُرى وَرَقًا بعضٍ وبعضٍ يُرَى عينا(٢)

وله فى غلامٍ مليح أسمر :

يا ذا الذى يُنفِق أموالَه — فى حبِّ هــذا الرشأ الفائق(٣)

ما الذهب الصامتُ مستكثِراً — إذهابُه فى الذَّهب الناطق(٤)

ومنهم من يقول فى معشوقٍ له تمتام ، وهو محمود بن إسماعيل بن حميد الدِّمياطي :

تمتمةٌ تمَّ غرامى بهـــا — وعارضٌ عرَّضنـــى للسَّقام

ووَفرةٌ همِّى بها وافـــر — وحاجبٌ حجَّب عنِّى المنام(١)

وله من أبيات يصف الخمر :

و بتُّ ليلِي أرى النار التى سجدت — لها المجوسُ من الإبريق تسجد لى

هذا — أطال الله بقاء الحضرة السامية — ما أملاه الخَلَد ، على اليد ، فى فى مدة متقاربة الطرفين ، ضيقة ما بين الحاشيتين . فإن تراخت المدة استدركت الفائت(٢) واستلحقت الناقص ، إن شاء الله تعالى .

نجزت يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة عام ١٠٩١ بأدرنة .

---

(١) فى الأصل : « غيثاً » صوابه في ق والخريدة . والعين في هذا : الينبوع الجارى .

(٢) فى الأصل : «غيثاً » صوابه فى ق والخريدة . والورق : الفضة ، تقال بفتح الراء وكسرها ، وفتح الراء هنا أوفق للصناعة . والعين فى هذا البيت بمعنى الذهب . وفى ق والخريدة : « يرى ورقا بعضاً وبعضاً يرى » وتقرأ : « يرى » بهذه الرواية على أنها مضارع أرى .

(٣) ق : « الأسمر الفائق » .

(٤) فى الخريدة : « مستنكراً » ، وفى الأصل : «ذهابه» وأثبت ما فى ق والخريدة : (٢ : ٢٠٥) .

(٥) فى الأصل : «اللام» صوابه فى ق . (٦) فى الأصل : « الفائق» صوابه فى ق .

obeikandi.com